حديث عابر

بقلم
عمران بن محمد العمران

دار الثلوثية

الطبعة الأولى
1445هـ/ 2023م

حديث عابر

ح دار الثلوثية للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمران، عمران بن محمد

حديث عابر/ عمران بن محمد العمران

الرياض، ط ١، ١٤٤٤هـ ١٧ × ٢٤

١-المقالات العربية- السعودية أ. العنوان

ديوي: ٠٨١ ١٤٤٤/٧٥٣٤

ردمك: ٠ - ٦ - ٩١٤٢٥ - ٦٠٣ - ٩٧٨

رقم إيداع: ١٤٤٤ / ٧٥٣٤

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ / ٢٠٢٣م

الناشر دار الثلوثية

المملكة العربية السعودية - الرياض

مخرج ٧- أمام بوابة ٣ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

هاتف: ٩٦٦١١٤٥٠٧٨٣٢+ فاكس: ٩٦٦١١٤٦٤٥٩٩٩+

الموقع الإلكتروني: www.tholothia.com

البريد اللكتروني: email:tholothia@gmail.com

حديث عابر

بقلم:

عمران بن محمد العمران

دار التوتية

1445هـ / 2023م
الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

جدول المحتويات

السيرة الذاتية للمؤلف ٩
مقدمة الناشر ١٢
الإنسان.. ذلك «البطل» المسرحي ١٣
عودٌ على بدء ١٦
قلب الرِّياض ١٩
حديث عابر ٢٣
سلبيَّة مؤسفة ٢٥
رحم الله الأستاذ/ أحمد مُحَمَّد جمال ٢٧
وهذا هو الحصاد! ٣٠
هواجس حول الحياة ٣٣
عندما يجافي الخبر الواقع ٣٥
السَّرقات العلميَّة أيضًا ٣٨
شهوة الإنفاق ٤٠
ومات الرِّفاعي ٤٣
هل العمل ضروري لهاً؟ ٤٦

لنتعامل مع هذا الأدب بحذر! ٤٩
(مع الرِّياض) في عددها الألفي العاشر ٥١
رسالة إلى المسافر..... ٥٦
الأنظمة (بين احترامها وابتذالها)..... ٥٩
في البطحاء..... ٦٢
لهذا هُزمنا..... ٦٥
الحَـجَّاج ليس كذلك..... ٦٨
ورحل حمد الجاسر!نعم، رحل شيخنا ومعلِّمنا حمد الجاسر..... ٧١
حول اليمامة..... ٨٢
حمد الجاسر و(اليمامة)..... ٨٧
لكي لا نكون أمام خرِّيجين ينوء بهم كاهل الوطن!..... ٩٢
فاجعة عربيَّة جديدة!..... ٩٧
خواطر من وحي الفاجعة!..... ١٠٢
لا أُحبُّها ولا أكرهها! ١٠٧
شيخوخة الوظيفة..... ١١٠
صديق ولكن ١١٣
الدُّستور ألعوبة الأمم المتخلِّفة!..... ١١٦
الأثير الملوَّث.. ..... ١١٨

نحن والذِّكرى..... ١٢١
في يومنا الوطني..... ١٢٧
عن الصَّحافة ١٣١
عندما يخطئ النَّقد سبيله..... ١٣٣
غادة اليابان ١٣٦
بين شعرين.. ..... ١٤٠
أحزان الأشقاء..... ١٤٢
على هامش الأخبار..... ١٤٧
أين تكمن العلَّة؟! ١٥١
سيادة اللُّغة من سيادة أهلها ١٥٤
عن الواقع العربي أيضًا ١٥٧
ومع هذا فلا يأس مع الحياة!..... ١٥٩

السيرة الذاتية للمؤلف

- الأديب الأستاذ الشَّاعر عمران بن مُحَمَّد العمران، شخصيَّة أدبيَّة من الرَّعيل الأول والرواد للحركة الثقافيَّة في المملكة العربية السعودية.
- مواليد (١٣٥٢هـ، ١٩٣٣م)، ودرس في كليَّة اللُّغة العربيَّة وتخرَّج منها في أوَّل دفعة منها عام (١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م).
- حصل على دبلوم الدِّراسات الأدبيَّة واللُّغويَّة من معهد الدِّراسات العليا التَّابع لجامعة الدُّول العربيَّة عام (١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م).
- عمل مديرًا لأعمال لجنة الأنظمة بالأمانة العامَّة لمجلس الوزراء.
- عمل مديرًا إقليميًّا لمكتب العمل الرَّئيس في المنطقة الشرقيَّة التَّابع لوزارة العمل والشُّؤون الاجتماعيَّة.
- عمل بالإعارة في الشَّركة الوطنيَّة السعوديَّة للكهرباء.
- عمل في مؤسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة، وهو أوَّل رئيس تحرير لصحيفة الرِّياض عام (١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م).
- عُيِّن مديرًا عامًّا لمصلحة المياه والصَّرف الصِّحي بمنطقة الرِّياض بين عام (١٣٩٧هـ - ١٤١٢هـ). أي (١٩٧٧م - ١٩٩٢م)، وظلَّ في هذه الوظيفة حتَّى تقاعُدِه.
- تمَّ اختياره عضوًا في مجلس الشُّورى في دورتيه الأولى والثَّانية.

- من أوائل الكُتَّاب في الصُّحف السُّعوديَّة، فقد مارس الكتابة فيها منذ عام (١٣٧١هـ، ١٩٥١م).

- عضو في مؤسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة.

- عمل مع الشَّيخ حمد الجاسر في تحرير صحيفة اليمامة في مرحلة صحافة الأفراد في السُّعوديَّة، وكان ينوب عن الشَّيخ حمد الجاسر في التَّحرير أحيانًا.

- أحد مؤسِّسي نادي الرِّياض الأدبي عام (١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م).

- له اهتمامات أدبيَّة مبكِّرة، وكتب عن شعراء اليمامة.

- له دراسة مبكِّرة عن «ابن المقرب العيوني»، شاعر الأحساء، ونُشرت دراسته منذ أكثر من (٥٠) عامًا.

- من أقدم قصائده ما نُشر في ديوانه المطبوع، فكانت قصائده مكتوبة في عام (١٣٧٣هـ، ١٩٥٣م)، وكانت بعنوان «الانطلاقة الكبرى» وهي من أوائل من قصائده.

- له العديد من المؤلَّفات «من أعلام الشِّعر اليمامي»، وقد طُبع في مطابع الرِّياض (١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م)، وهو بذلك من أوائل المؤلِّفين السُّعوديين.

- دراسة عن «ابن المقرب العيوني حياته وشعره»، وقد طُبع في الرِّياض عام (١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م).

- ديوان شعر طبعته الجمعيَّة العربيَّة السُّعوديَّة للثَّقافة والفنون، بعنوان «الأمل الظامئ»، وقد نُشر عام (١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، و«هوامش أدبيَّة»، وهي مجموعة مقالات،

وطُبع عام (١٤١٣هـ، ١٩٩٣م)، و«شؤون وآراء»؛ مجموعة مقالات تتناول عددًا من القضايا الاجتماعيَّة وشؤون الحياة والنَّاس، وقد طُبع (١٤١٣هـ، ١٩٩٣م).

- صدر عنه العديد من الدراسات والمقالات من أهمها: دراسة حصل بها الباحث/ خليف بن غالب الشمري على رسالة الماجستير بعنوان: «ديوان الأمل الظامئ للشاعر عمران العمران»، دراسة موضوعية فنية عام (٢٠١٤م) من كلية اللغة العربية، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

مقدمة الناشر

الأستاذ/ عمران بن مُحَمَّد العمران أحد الروَّاد للحركة الثَّقافيَّة السُّعوديَّة منذ أكثر ما يزيد على خمسين عامًا، كان له إسهامه المشهود، ودوره المعروف، وآثاره الواضحة في المشهد الصَّحفي والإعلامي والثَّقافي.

لقد قضى الأستاذ/ عمران الشَّطر الأكبر والأثمن من عمره في خدمة هذا الوطن الغالي وولاة أمره؛ فتحمَّل مسؤوليات، وتقلَّد أعمالًا، فكان فيها نعم المؤتمن المخلص، حتَّى حاز الثقة الكبرى، وكانت آراؤه السديدة في محطَّات عمله شاهدًا على حصافة الرَّأي، ورجاحة العقل.

كما أنَّه نشر مقالاتٍ عديدةٍ مبكِّرة، فكان أحد الروَّاد في الكتابة والمقالة الصَّحفيَّة السُّعوديَّة، في عدد من الصُّحف والمجلَّات.

وكان قلمه الرَّصين، وعبارته الجميلة، ومشاعره الوطنيَّة الجيَّاشة ترتبط دومًا بجميع مقالاته وكتاباته، وإنَّنا في دار الثُّلوثيَّة للنَّشر والتَّوزيع حين ننشر هذه المقالات فإنَّها في الوقت ذاته تستحق الدِّراسة العلميَّة من قبل الجامعات السُّعوديَّة؛ لأنَّها تمثِّل محطَّةً ناصعةً من مراحل البناء لهذا الكيان الكبير المَملكَة العربيَّة السُّعوديَّة.

وكتبه أبو عبد الله

د. مُحَمَّد بن عبد الله المشوِّح

الإنسان.. ذلك «البطل» المسرحي

خلق الله الحياة، وأوجد فيها السعادة والشقاوة؛ فهي حلوة تارةً، ومُرَّة تارات أُخَر، والإنسان هو (بطل) الأحداث الخيِّرة، أو الشِّريرة.

يستيقظ المرء في صباحه، فتدفعه حاجته، أو عادته، أو غريزته إلى الجري وراء لقمة عيشه؛ فهو يعمل ويكدح؛ ليطعم نفسه، وصغاره، ومن يعول، وإن اختلفت صور ذلك الكدح أسلوبًا وطريقة، وحُسنًا، وقبحًا.

إلَّا أنَّ من النَّاس من يقنع بكفاف العيش عن رغده، وبميسوره عن مكثوره، بل إنَّ منهم من يرى أنَّ القليل الَّذي يغنيه عن سواه من البشر هو غاية البهجة؛ فيعيش في واقعه قرير الروح، سعيد النَّفس، ومن النَّاس من ليس كذلك؛ فهو يلهث - سحابة عمره - مستزيدًا من عطاء الدُّنيا، وقد يفضي به شرهه إلى فقدان وازع الخير - وهنا تكمن البليَّة - فيُخطئ حدود المباح، وينغمس في أوحال الجشع والاحتيال متناسيًا أنَّ لديه الكثير الكثير ممَّا أفاء الله به عليه، ومما يغنيه عن نوازع السوء، ولكنَّها النَّفس الأمَّارة بذلك أبدًا، ثمَّ لا يعتِّم إلَّا وقد وجد نفسه في أتون من القلق والهلع، وفي متاهات من عبث النَّفس والوجدان متحسِّرًا على مصير ما بين يديه، وهو يرى الأجل يحث خطاه، والأيَّام تطوي البساط من تحته!.

وكما أنَّ الحياة مليئة بالمفارقات الماديَّة؛ فهي أيضًا مترعة بالعواطف الجيَّاشة المضطربة، وبالمشاعر النَّافرة المتطاحنة، حافلة بفنون الحب والكره، وصنوف الرضا والغضب، تغدو وتروح على شاكلة أمواج متلاطمة في بحر الحياة اللُّجيّ، لا يكاد

المرء يطوي صفحة من كتابها الأزليّ، ويفتح أخرى إلَّا على شؤون وشجون، على توادٍّ، ووفاقٍ، وتلاحم، أو على إحَنٍ، ومشاحنات، وصراعاتٍ بين الإنسان وأخيه، بل بين الشَّقيق وشقيقه.

ولربما كان الأب سعيدًا بأبنائه، مغبوطًا على ما هو فيه من نعمةٍ، ولربما بات يعاني الأمرَّين من عقوقهم إيَّاه، أو من سوء تعاملهم مع غيره، وعجزه عن كبح جماحهم.

وقد لا يحمل الإنسان هموم نفسه وأهله فحسب، ولكنَّه يحمل أيضًا هموم مجتمعه وأمَّته؛ فيجود بنفسه رخيصة في سبيل ذلك، وقد يعثر به ضميره؛ فيخون دينه ووطنه، فيصبح سبة الأيَّام!

وفي غضون ذلك كلِّه، يحمل الإنسان - بين كفَّيه - أنماطًا متباينة عجيبة من الطموح، ومثلها من الإحباط، ويبلغ الغليان ذروته بفكر هذا الإنسان حينًا، وقد تخمد جذوة الحماسة لديه في لحظات.

وفي معترك ازدحام المآرب وغياب الحقائق، تحسن الظنون عادة، أو تسوء دونما تبصُّرٍ، أو تمعُّنٍ، أو استقصاءٍ للواقع؛ إذ لم يعد هناك من يملك الأداة النيِّرة، ولا من تعنيه جديَّة الأمور، ولهذا قد يُضفَى على شخصٍ ما يبدو - في نظر كثيرين - نزيه اليد، عفيف الذَّيل، بينما واقعه ينمُّ عن عكس ذلك.

وتتباين نظرات النَّاس إلى بعضهم؛ فهذا معجب، أو غابط، وذاك حاقد أو حاسد، وهذا يتعالى بجهله ظنًّا منه أنه في القمة عقلًا وفهمًا، وذاك يتواضع بطبعه، أو بعلمه وخلقه؛ إفصاحًا عن أصالة في معدنه وسموٍّ في فكره، هذا يخفض جناح ودّه وتواضعه

للنَّاس؛ تعبيرًا عن ذاته، وذاك ينفش ريش خيلائه أمامهم؛ إدلالًا بجاهٍ مصطنع، أو ثراء مشبوهٍ، أو موقع مهتزّ!

وهكذا يشتد وطيس الصراع بالإنسان - إيجابًا وسلبًا - على شتَّى الجبهات؛ فلا ينفك من ذلك حتَّى يتوقَّف نبضه، ويجفَّ دمه، ويودع في رمسه.

وبعد، فهل الحياة إلَّا مثل هذه الصُّور؟!

وهل الإنسان إلَّا ذلكم «البطل» المسرحيّ، المسكين أبدًا؟![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٨٠٥٢) - بتاريخ ١٠/ ٥/ ١٤١٥هـ.

عودٌ على بدء

كتب الأستاذ/ رضا مُحَمَّد لاري في جريدة (البلاد) الصادرة بتاريخ: ١٦/ ٣/ ١٤١٥هـ - مقالًا عن أهميَّة إنشاء جامعة أهليَّة تكون مرتبطة علميًّا بإحدى الجامعات العالميَّة، أو السماح بفتح جامعة أمريكيَّة في المملكة.

ومهما نختلف - أو يختلف غيرنا - مع الأستاذ/ رضا، في وجهة نظره، على النحو الَّذي فصَّله في مقاله، فإن المقال جدير بالتَّأمل، والدَّرس، والمناقشة، وحريٌّ باهتمام المختصِّين في شؤون التَّعليم عامَّة، وفي التَّعليم العالي تحديدًا، وكذلك باهتمام المسؤولين في الدَّولة، بل وباهتمام المواطنين.

وقد عنَّت لي أثناء قراءة المقال ملاحظتان:

الأولى: أنَّ الأستاذ/ رضا قد علَّل الحاجة لمثل هذه الجامعة؛ باستمرار معاناة الطلبة الحاصلين على الثَّانويَّة العامَّة في سبيل القبول بإحدى جامعاتنا؛ لأنَّ (المجموع) الَّذي تطالب به هذه الجامعات يمثل عائقًا في الالتحاق بها.

فهل يريد الكاتب الكريم من الجامعة المقترحة أن تستوعب الطَّلبة الَّذين لم تقبلهم جامعاتنا؟ ومن ثمَّ تصبح ملاذًا لذوي المستويات العلميَّة المتدنيَّة؟

إنَّنا نعتقد أنَّ الجامعة المقترحة بالشكل الَّذي تصوُّره لها الأستاذ/ رضا لن تقبل بأن تكون أبوابها مشرعة لمن ترفضهم جامعاتنا!

ثمَّ إنَّنا نخشى أن تصبح الجامعة المقترحة - أيضًا - جامعة للقادرين على دفع الرُّسوم، وهي الرسوم ستكون باهظةً؛ لاعتماد معظم ميزانيَّة الجامعة عليها، وعندئذ

تصبح الجامعة خاصَّة بأبناء الموسرين في النَّهاية، ونحسب أن كاتب المقال نفسه لا يقصد إلى ذلك.

الثَّانية: نحن نتَّفق مع الأستاذ/ رضا في أنَّ قيام جامعة من هذا القبيل سيخضع - دون شكٍّ - لقيم هذه البلاد ومثلها، كما سيكون هناك حضور لرقابة الدَّولة عليها بصورة عامَّة، ممَّا يجعلها لا تشكِّل خطرًا على نشأة الشَّباب، ونتَّفق أن ذلك خير من أن يغادر الشَّباب بلادهم إلى خارجها؛ بحثًا عن العلم والمعرفة في مجتمعات غريبة عنهم.

لكنَّنا قد لا نتَّفق معه في جملة تصوُّره، بأنَّ قيام هذه الجامعة قد يخدم بلادنا على المستوى العالمي، لالتحاق غير السُّعوديين بها، وهو يرى أنَّ هؤلاء سيرتبطون بهذه البلاد وجدانيًّا وعاطفيًّا، وسيصبحون سفراء لنا في بلادهم، ويضرب مثلًا لذلك بخرِّيجي الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنورة الَّذين عادوا إلى بلادهم.

وهذا القول يجب ألَّا يؤخذ على إطلاقه، كما أنَّ المقارنة هنا غير واردة؛ فأبناء المسلمين الَّذين وفدوا للدِّارسة في الجامعة الإسلاميَّة كان يحدوهم دافع ديني محض بتلقي علوم الشريعة في مهدها، وهم ينظرون إلى هذه البلاد على أنَّها الوطن الأمّ لكلِّ مسلم، وتعلقهم بهذه البلاد - بعد عودتهم لبلادهم - أمر طبيعي؛ لأنَّه نابع من وجدان المسلم أولًا، والمملكة تشعر برسالة خاصَّة بها تجاه هؤلاء، وقد جاؤوا على حسابها، بل ويحصلون على مكافآت مجزية منها، وعلى تسهيلات شتى.

أما الَّذين سيدرسون في الجامعة المقترحة من غير السُّعوديين، فإنَّ تعلُّقهم بالمملكة وجدانيًّا وعاطفيًّا مسألة فيها نظر، وليس بالضَّرورة أن يتعلَّق الدَّارس في بلد ما وجدانيا وعاطفيّا به.

وكمثال على ذلك: فإنَّ الطَّلبة الدَّارسين في بلدٍ (كأمريكا) لم يتعلَّقوا بها إلى ذلك الحد، وما كانوا سفراء لها في بلادهم، بل إنِّي أتذكَّر كلامًا نُشر في صحيفة عربيَّة منذ سنوات قليلة لمسؤول في دولة أجنبيَّة - وقد تكون أمريكا نفسها - يرى فيه ضرورة إعادة النَّظر في تقديم التَّسهيلات لطلبة العالم الثَّالث الرَّاغبين في الدِّراسة لديها؛ لأنَّ التَّجربة أثبتت أنَّ معظم الَّذين درسوا بها لا يكنون لها أي ودٍ، ولم يخدموها، أو يخدموا سياستها كما يجب!

إنَّني أعيد القول بأنَّ: فكرة الأستاذ/ رضا هي في مجملها - وليس في تفصيلها - قمينة بنقاش المختصِّين من مسؤولين وغيرهم، على ألَّا يكون في مثل هذه الجامعة تكرار للاختصاصات النَّظريَّة القائمة في جامعاتنا، وأن تكون أهدافها ومناهجها منطلقة من الحاجة الوطنيَّة الفعليَّة، وأن تركز على الاختصاصات العلميَّة التِّقنيَّة، وتنأى عن الدِّراسات النَّظريَّة الَّتي طفح بها الكيل!

وإلَّا فإنَّها ستكرس المعاناة (الحقيقيَّة) الَّتي عانى منها غيرنا، وسنعاني منها قريبًا، والمتمثلة في تكديس خرِّيجين بلا حاجة، وعمل؛ خرِّيجين سينوء بهم - كما قلت في مقالة سابقة - كاهل الوطن!

وشكرًا للأستاذ/ رضا مُحَمَّد لاري الَّذي أتاح لي (تكرار) الحديث!![1]

❁❁❁

(١) مجلة اليمامة- العدد (١٣٢٢) - بتاريخ ٩/ ٤/ ١٤١٥هـ.

قلب الرِّياض

وسط أيّ مدينة، هو: (قلبها النَّابض)، بل هو وجدانُها، وصورةُ ماضيها، وحاضرها معًا!

وقلب الرِّياض - منذ عهد الإمام تركي بن عبد الله - هو ميدان الصفاة أو ما كان يسمَّى بـ(البراحة)، وقد أصبح معروفًا اليوم بساحة العدل أو منطقة قصر الحكم.

إنَّني كلما أجد نفسي في هذا الموقع تطوف بين ذكريات وصور متلاحقة عن الأمس القريب الَّذي دعته ذاكرتي، خاصَّة في العقد الأخير من عهد الملك عبد العزيز - رَحِمَهُ اللهُ -، وترف من حلو أشتات بهيجة من المشاعر والأحاسيس.

كان هذا الميدان ملتقى كثير من مظاهر الحياة المألوفة في ذلك الزَّمان؛ فهذا موكب الملك المهيب قادمًا من (المربَّع) إلى قصر الدِّيرة في صباح معظم الأيَّام، وهذه وفود (المناويخ) - من بادية وحاضرة - القاصدة إلى رحاب الملك، يموج بهم المكان - على ما كنا نتصوَّره فيه من سعة - وتضطرب بهم أركانه، ويتلقاهم (ابن جميعة) - إن كانوا ضيوفًا - فيحل كل منهم في المضافة الَّتي تليق به، ويتلقَّاهم موظف، أو أكثر من موظَّفي ديوان الملك، إن كان أولئك قد جاؤوا شاكين من مظلمةٍ، أو أصحاب قضيَّة، فتجمع (عرائضهم) وتقدم للملك في ساعتها، ويُبت فيها دون تعقيد من (روتين)، أو سواه، وفئة ثالثة أتى عليها الجدب والقحط فجاءت مسترفدة، وحصلت على (الشرهة)، و(الزهاب)، وعادت لسبيلها حامدةً شاكرةً.

وبما أنَّ هذا الميدان هو قلب المدينة، والمدينة ليست كبيرة، فإنَّه يندر ألَّا يمر

المرء به مرَّة أو مرتَّين في اليوم، هناك يلتقي النَّاس بعضهم بعضًا؛ فيستطلعون الأخبار، ويتبادلونها، ويعودون يروونها، ومن الجائز أن يكون من بينها أخبار الحرب العالميَّة الثَّانية الَّتي توشك على نهايتها يومذاك، وهي أخبار يتلقونها - عادة - متأخرة، ولكن هذا لا يهم؛ فالأخبار تُحكى من باب (السَّوالف)، أو كما تحكى أخبار (داحس والغبراء)، ومعظم النَّاس لا يدري من شؤون السِّياسة شيئًا، ولا تخطر أمورها لهم على بال.

وتقام (العرضات) - في هذا الميدان - في أيَّام الأعياد، أو في بعض المناسبات الخاصَّة؛ لختم القرآن، وقبل ذلك كانت تقام فيه العرضات الَّتي يغلب عليها الطابع الحربي الحماسي؛ لإذكاء الروح بين المحاربين عند توجههم للمعركة، أو عند ورود خبر بانتصارٍ جديدٍ، أو بخذلان الخصوم، ويشارك الملك عبد العزيز أحيانًا في مثل هذه العرضات، وهي بالنِّسبة إلى الصغار مصدر بهجة، ومبعث سرور، ويتباشرون بها.

والصفاة هي مكان إقامة الحدود الشرعيَّة، من قصاص وقطع وجلد، على: (القتلة وقطَّاع السبل، ومثيري الفتن، ومهربي المحرمات، وتاركي الصلاة).

ويقبع في جانب من المكان بعض الكتبة الَّذين يتولون كتابة (العرائض) لذويها مقابل قرشٍ أو قرشين.

وقد يتحول الميدان في النصف الأول من شهر ذي الحجة إلى (مجلبة) للأضاحي؛ فيعجُّ بقطعان الأغنام، وبالباعة، والمشترين.

وفي طرف منه، قد تلمح قافلة من الجمال، يحدونها (جماميلها)، تدخل من

(دروازة الثّميري) حاملة على ظهورها (قلال التّمر)، قادمة من الأحساء على ما يبدو، فتعبر طرف الصفاة إلى (ميدان دخنة)؛ حيث سوق التمر، والعيش.

وتحف بأسافل جدران القصور المطلة على السَّاحة، ومنها: (قصر الحكم)، دكاك للجلوس، وتُعدّ مستراحًا للوافدين، والعابرين، والمتفرِّجين، والفضوليِّين.. وما أكثرهم!.

وإذا مرَّ غريبٌ غير معروف للنَّاس، فإنَّه يصبح محلَّ تأمُّل الجميع وتساؤلهم، ولا يكادون يرفعون عنه أعينهم حتَّى يتوارى!

وذلك بعض ما تعيه ذاكرة جيلنا، وهي ذكريات يطول الحديث عنها لو أنَّ القلم مضى في استرساله.

إن التَّوسُّعَ المطرد الحديث الَّذي طرأ كاد يُفقد وسط المدينة؛ ظلَّ يرقب مسار التَّطوُّر عن كثب - لولا الحاسة الذكيَّة، والنظر البعيد الثَّاقب، الَّذي ظلَّ يرقب مسار التطور عن كثب، ويعمل للتخطيط الجيِّد الجديد لهذه المدينة، ولهذا الموقع بالذَّات، في صمت؛ كي يبقى رمز المدينة المخضرمة في قلب الجزيرة العربيَّة.

وكان الأميرُ سلمان هو أوَّلَ الحفيِّين بهذا الشَّأن حقًّا، بل هو رائد الفكرة ومهندسها؛ فاحتضنت الهيئة العليا لتطوير مدينة الرِّياض - الَّتي يرأسها سموه - الموضوع، ونهضت به، وعاد وسط المدينة جميلًا جذابًا، وبهذا الشكل الَّذي نشهده وقد تمازجت فيه ملامح النمط المعماري القديم مع النمط الحديث، وما تخلَّله ذلك من لمساتٍ

إبداعيَّةٍ، ومن ثم أصبحت المنطقةُ واجهةً حضاريَّةً للمدينة بحق، ونحسب أنها ستزدادُ روعةً وجمالًا بعد أن يكتمل تطويرها، وهو قريب بإذن الله.

ولكنَّ مظاهرَ الماضي الاجتماعيَّة الَّتي كانت تزخر بها الصفاة لن تعود؛ لأنَّ لكلِ زمنٍ سماته، وله ما يتناسب مع مفاهيمه، وظروفه، وأسباب المعاش فيه.

بيد أنَّ المرء يتمنَّى لو أنَّ بعضًا من تلك القصور ظلَّت قائمة كما ظلَّ قصر المصمك، ويتمنَّى لو أنَّ جزءًا صغيرًا من أحد الأحياء القديمة لم تنله معاول الهدم، وأنَّ جزءًا من سور المدينة أُبقي؛ وفاءً للماضي، والتَّاريخ[1]!

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨١٣٦)- بتاريخ ٦/ ٨/ ١٤١٥هـ.

حديث عابر

يتداول بعض النَّاس في مجالسهم - منذ فترة أو فترات - الأحاديث عن هبوط أسعار أسهم الشركات، كما يتداول بعض آخر الحديث عن ركود سوق العقار، أو هبوطه، وهم - في هذا وذاك - بين متألِّمٍ لوضعهِ، وآمل في غده.

وعلى أيّ حال، فالكل «يغني على ليلاه»، ولكنَّ غناءهم عليها حزين في مجمله، وبدءًا أقول: إنني لستُ في العير ولا في النَّفير - كما يقول المثل - ولا علاقة لي خاصَّة بالموضوع، وإذا تحدَّثت عنه؛ فلِصلته بطائفة من المواطنين.

كما أنني لا أزعم لنفسي صفة العلم بالاقتصاد؛ فأنا في هذا الجانب معدود في (الأمِّيِّين)، ولكنِّي أتحدَّث - هنا - حديثًا عامًّا عابرًا موجزًا.

نعلم أنَّ سوق الأسهم قد هوت - في الآونة الأخيرة - إلى حد مزعج لأربابها، بيد أنَّ معظم الشَّركات ما تزال القيمة السوقيَّة لأسهمها فوق قيمتها (الاسميَّة أو الدفتريَّة)، وأن (كثيرًا) من هذه الشركات تعطي أرباحًا مناسبة للمساهمين فيها - كما يبدو من تصريحات المسؤولين عنها في الصُّحف - فضلًا عن احتياطيَّاتها الكبيرة الَّتي تحوّل جانبًا منها إلى أسهم جديدة أخرى.

صحيح أن (بضعًا) من الشَّركات قد هبطت أسهمها إلى ما دون قيمتها الاسميَّة، إلَّا أنَّه لا بدَّ من وقفةٍ هنا، بل لا بدَّ من مراجعةٍ فاحصةٍ جادَّةٍ؛ فقد يكون الأمر راجعًا إلى خللٍ في الوضع الإداري يجب تداركه، أو لإسرافٍ في الإنفاق لا مبرر له، أو

أنَّ صرف الأرباح قد تأخر؛ لظروف عامَّة خارجة عن الإرادة، وأنَّ الأمور ستعود لوضعها بعد زوال الأسباب.

وإلى جانب كل ذلك؛ فالنَّاس قد اعتادوا الربح سريعًا وكثيرًا، وهم يريدونه كذلك أبدًا، وقد تناسوا أنَّ الخسارة محتملة في أي عمل، ونسوا أنَّ «دوام الحال من المحال»!

ومن رأيي - وهو رأي من غير مختص - أنَّ الارتفاع الفاحش في أسعار الأسهم الَّذي حدث قبل ثلاث سنوات كان خارجًا عن حدود المنطق، وأنَّ ما حدث أخيرًا من تراجعٍ للأسعار، هو الأقرب إلى المعقول، وإن كان ليس هو المعقول تمامًا!

وما يقال عن الأسهم يقال عن العقار أيضاً، فما الَّذي يبرر بلوغ سعر المتر المربَّع من أرض يباب موحشة، تبعد عشرة أكيال عن العمران، ولا يُتوقَّع وصول مرافق الخدمات إليها، ولو بعد عشر سنين؟ ما الَّذي يبرر بلوغ سعر المتر فيها مائتي ريال مثلًا؟[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨١٤٣) - بتاريخ ١٣/ ٨/ ١٤١٥هـ.

سلبيَّة مؤسفة

تنفذ الكلمة العابرة العجلى إلى رؤوس بعض النَّاس مباشرة؛ فيستسلمون بها، كأنَّها إحدى الحقائق الَّتي لا تقبل نقاشًا، أو جدلًا، ويصدّقون بها دون مراجعة للنفس، أو وعي منها، ثمَّ لا تلبث أن ترى هؤلاء قد جعلوا من تلك الكلمة منطلقًا لكثير من التصورات؛ لتصبح (مسلَّماتٍ) ولو قسرًا، ولتصير جزءًا من شؤونهم، وشجونهم، وهمومهم!.

والغريب أن هؤلاء وقد يتلقَّفون الكلمة (الأخرى) النقيضة؛ فيحفلون بها أيضًا! وتهضمها أفكارهم في حماسةٍ وسرعةٍ، من غيرِ ما تمعنٍ، أو تردُّدٍ، وإذا بهذه الكلمة تمسحُ من الذَّاكرة كلَّ أثرٍ للكلمة الأولى!

هي شنشنةٌ لدى هذا النوع الضعيف من النَّاس؛ تستهويهم قرقعة الشنان، ويعبث بهم هزل القول، فهم - كما في المثل العامي -: «باب قُوعٍ» متهالك، تلعب به الرياح - ولو كانت غير شديدة - ذات اليمين وذات الشمال، فيسيرون مع الظنون والأوهام أنَّى سارت، لا رأي يهديهم، ولا إرادة تعصمهم، ولا شخصيَّة واضحة تسندهم، بل هم مجرد رجع صدى بليد!

يعوزهم في العادة إعمال العقل، وتحرير الذهن، ولا يستطيعون الإفصاح عن ضمير الذَّات مجرَّدًا من الهوى والتَّأثُّر، وبمنأى عن التَّبعيَّة والمحاكاة.

وغالبًا ما تنعكس مشاعر هؤلاء المتقلبة على تصرفاتهم وتعاملهم؛ فهم - في

ذلك - مع هبوب الهواء دائمًا يتلمسون القدوة في الخير والشر معًا؛ إن رأوا فيما يحيط بهم من مجتمع إحسانًا وصلاحًا ساروا في ركبه على الطريق وادعين، وإن لمسوا انحرافًا أو فسادًا لم يتورعوا عن السُّوء والولوغ في إنائه المحرم عامدين!

وهذا هو عين المحذور، أو هو السلبيَّة في صورة من أبشع صورها؛ صورة لا تتَّفق مع خلق أو دين!

إنَّ أولئك يعيشون ظمأ في التَّربية الدينيَّة والوطنيَّة، وقد يكونون أمسّ النَّاس حاجة إلى إصلاح الذَّات، وتقويم اعوجاج النَّفس.

ونحن - المسلمون - أمامنا منهاج إنساني صريح، يقول:

«لا يكن أحدكم إمَّعةً، يقول: أنا مع النَّاس؛ إن أحسن النَّاس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم؛ إن أحسن النَّاس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تتجنَّبوا إساءتهم».

فما أجدرنا أن نستوعب معنى هذا الأثر الكريم، وأن نحذو حذوه، ونسير على خطاه![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٨٠٧٣)- بتاريخ ٢/ ٦/ ١٤١٥هـ.

رحم الله الأستاذ/ أحمد مُحَمَّد جمال

رحم الله الأستاذ/ أحمد مُحَمَّد جمال؛ فقد عاش بقلمه يدافع وينافح في سبيل حقوق أمته العربيَّة والإسلاميَّة، على مدى ما يناهز نصف قرن من الزمان، كما كان صاحبَ رؤيةٍ خاصَّة للأمور؛ رؤية صادقة التوجه في معتقدها، بل كان صاحب مبدأ فذٍّ، ورأي سليم، وفكرٍ صادقٍ، لا يكاد يحيد عن ذلك طيلة عمره الصَّحفيّ، والقلميّ الحافل.

وقد كان حفيًّا بأمور الإسلام والعرب، معنيًّا بمعالجة مشكلاتهم، وقضاياهم، وتحديات عصرهم، وحضارتهم، كما أنَّه كان يفيض بأحاسيس الحسرة والألم لواقع المسلمين في شتَّى أصقاع الدُّنيا حاملًا راية القلم في كل مناسبة تحدث لهم، منافحًا عن كل قضيَّة عربيَّة، أو إسلاميَّة؛ فما انهزمت له الراية القلميَّة يومًا، ولم يتوقف منه شعور، أو إحساس، ولا نالت من عزيمته الفكريَّة نائلة من نوائل الزمن، بل كان يشتعل حماسة، وشعورًا، ونضالًا، وإمعانًا في رأيه.

عرفته - مباشرة - عندما جمعتني الصُّدفة معه في رحلةٍ صحفيَّةٍ إلى تونس، ضمن وفدٍ صحفي سعودي سافر إلى هناك، بدعوةٍ من الحكومة التونسيَّة، وذلك في ربيع عام (١٩٦١م)، فكان نعم الرفيق!

وقد قد عرفته قبل ذلك عن طريق ما كان يكتبه في (جريدة البلاد السُّعوديَّة)، وكان

سكرتيرها، وذلك منذ نحو خمسة وأربعين عامًا، في عهد شيخ الصَّحفيِّين الأستاذ/ عبد الله عريف - رَحِمَهُ اللهُ - كان قلمه غيورًا بحق، وتأثيره في أذهان قارئيه كبيرًا.

بدأ حياته القلميَّة أديبًا وشاعرًا، وقد انتج في مستهل حياته الأدبيَّة كتابيه: (سعد قال لي)، و(ماذا في الحجاز؟)، وديوانه: (الطلائع)، وقد كتب العديد من المقالات، وطرح العديد من الأفكار في شتَّى شؤون الحياة، حتَّى أصبح أحد أعمدة الأدب في بلاده، ثمَّ استقام به الطريق في الاتجاه الفكري الإسلامي؛ فكتب، وألَّف، وحاضر، إلى أن صار له تلاميذ ومعجبون.

لقد كان في أفكاره بعيدًا عن التَّكلُّف والتَّصنُّع، يميل إلى المجادلة بالتي هي أحسن، كما كان جهير الرأي، صادق الصَّوت، لا يداهن ولا يماري.

وإلى جانب اتجاهه الإسلامي فإنَّه قد ناقش كثيرًا من قضايانا: الفكريَّة، والاجتماعيَّة، والتربويَّة؛ فأعطى وجهة نظره تجاهها بصدق، بل أعطى وجهات نظر النَّاس بشأنها عن حق.

ولقد كنت أتابع مؤخرًا ما كان ينشره في (صحيفة المدينة المنورة)، تحت عنوان: (الحديث شجون)، عن شؤون التَّعليم، وكتبه، ومناهجه، ومشكلاته، ومعاناة الطلاب، وأساليب التَّدريس، وما إلى ذلك من أمور.

وقد وقعت بحوثه ومناقشاته من نفسي موقعها الحسن؛ لأنَّها تلتقي مع ما أحس به، وما يحسُّ به كلُّ مخلص، وتمنَّيت لو أن المختصِّين أعطوها حقَّها من المراجعة،

والنقـاش، والدِّراسـة؛ من أجل الوصـول إلى رؤيـة تعليميَّة مثلى، تحقـق للتعليم مهمته وغايتـه، على نحـو أجدى وأفضل.

رحـم الله الأسـتاذ/ أحمد مُحَمَّد جمال، أحد روَّاد الفكـر النيِّر في نهضتنا الحديثة، وأحد صنَّاع الكلمـة الصادقة الجريئة المعتدلة.[1]

❁❁❁

(١) جريدة البلاد - (١٠٥٥٧)- بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٤١٣هـ.

وهذا هو الحصاد!

يسائل المرء نفسه في مرارة وأسى، وقد شدَّه خبر من الأخبار السيِّئة عن العرب: ما الَّذي أوصل الأمور إلى هذا الواقع؟ وكيف اندفعوا إلى هذا المنحدر بصورة مذهلة سريعة، ومتلاحقة؟!

ومع أنَّ كثيرين يتحاشون الإجابة الصحيحة - مع الأسف - إلَّا أنها معروفة لهم ولغيرهم، ولو أنَّ أحدًا صادقًا مع نفسه أراد أن يوجز الأسباب الفعالة والمباشرة للحال الَّتي آل إليها الوضع العربي المشين اليوم، لحصرها في الغزو العراقي للكويت قبل أربع سنوات.

هي سنوات قليلة جدًّا، ولكنَّها مثقلة بالهموم والشجون، وبالنتائج المريرة المخزية لذلك الغزو؛ وهو غزو حقق لليهود مَا لَمْ تحققه محاولاتهم، وضغوطهم، وحروبهم، على مدى خمسين عامًا أو أكثر.

لقد جاءهم الفرج على يدي شخص ينتمي إلى العرب، وكان يعد نفسه وجيشه - كما قال - لإحراق إسرائيل، وتحرير فلسطين، فإذا بهذا الجيش يضل دربه في وضح النهار، ويصيب الأُمَّة العربيَّة في صميم وجدانها؛ فيشتت الجهود، ويفرق الأشقاء، وتغدو فعلته بردًا وسلامًا على قلوب الأعداء، ومَن وراءهم.

ومن ألمٍ أن يسير في الرَّكب عرب آخرون مثله؛ لم يرعوا للجوار حقًّا، ولا للعروبة والدين واجبًا، ولا للميثاق حرمة! عربٌ كانت دول الخليج العربيَّة تسندهم

بثقلها المعنوي والسِّياسي، وتمدهم بأموالها الجزلة السخيَّة؛ كيما يبنوا اقتصاد بلدانهم، ويتمكنوا من إقامة مشروعات التَّنمية الشَّاملة في مختلف مدنهم وقراهم، وكان مواطنوهم ينعمون بأوضاع خاصَّة، لا ينعم بها سواهم في دول الخليج العربيَّة ولا سيَّما في المملكة، ولست أقصد بهذا نكأ الجراح.

فلقد حدث ما حدث، وكانت النتيجة الحتميَّة لذلك: أنَّ العرب رجعوا من خلفهم إلى أبعد المسافات، وأضاعوا معظم ما تبقَّى لهم من أوراق، وهذا بفضل صولات (المغادير) أصحاب (العنتريات) ومَن اختصُّوا أنفسهم بتحرير الوطن من: (الرجعيَّة)، و(الصُّهيونيَّة)!

ولم يكن الحصاد - عندما حلَّ موسمه - إلَّا:

- اشتداد الضَّائقة على الشَّعب العراقي، وشعوب عربيَّة أخرى من الوجوه كافة، لا سيَّما من النَّاحيتين: (السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة)، وإحكام العزلة الدوليَّة قبضتها حول العراق.

- زيادة هوّة الخلافات العربيَّة بصورة لم يسبق لها مثيل، وعلى نحوٍ يوحي بالتَّشاؤم، وخيبة الأمل في غدٍ مجهول (لا قدَّرَ الله)!

- فقدان القوة العسكريَّة ذاتها، وانسلاخها عن هدفها القومي الَّذي كانت تُعدُّ نفسها له زمنًا طويلًا.

- تردِّي المعنويات في النُّفوس، وانحسار التَّطلعات المشتركة، وشيوع الشُّكوك، وعدم الثِّقة في الأخلاقيات السِّياسيَّة العربيَّة.

- نضوب أرصدة المال العربي؛ الَّذي كان موردًا كريمًا لبناء أوطان أصحابه، ودعمًا لجيرانهم العرب، وسندًا للأشقاء الآخرين من عرب ومسلمين.

- تهافت العرب على الصلح مع العدو بصورة مهينة، يقف أمامها الحليم حيران مذهولًا، وفي فترة زمنيَّة قصيرة جدًا.

هذا هو الحصاد، وما أسوأه!

بيد أنَّ السؤال الَّذي يشغل جوابه بال العربي المخلص، هو: هل كان ما حدث يوم غزو الكويت عن جهل وغباء؟ أم هو تغرير وختل؟ أم هو أمر قد دُبِّر بليل؟ وأن أحدًا لا يعرف سِرَّه؛ لأنَّ سِرَّه كامن في جوف ذلك اللَّيل، وفي جوف من دبَّره؟!

وعلى أيَّة حال؛ فإنَّ ما حدث هو أشبه ما يكون بحلم مرعب أفاق منه صاحبه، وهو لا يكاد يصدق شيئًا منه، لكنَّه أضحى يتجرّع العلقم!

وما علينا إلَّا أن نصبر ونصابر؛ فللزَّمن مفاجآته الخيِّرة - عاجلًا أو آجلًا - إن شاء الله.

هواجس حول الحياة

لا بدَّ أنَّ ملايين من النَّاس ممَّن هم في خريف العمر قد سُرُّوا وطربوا، وملأ الجزل جوانحهم، وذهب الفأل بهم كل مذهب؛ وهم يسمعون أو يقرؤون خبرًا نُشر - قبل أيَّام - عن اكتشاف عقَّار وُصِف بأنَّه يجدِّد حيويَّة الشَّباب لدى كبار السن؛ لك لأنَّ البشر جُبلوا على حبِّ الحياة، وعلى التشبُّث بأسباب البقاء إلى أقصى مدى، وهم من أجل هذا سيكونون سخيين جدًا، حتَّى البخلاء منهم سيجودون بالغالي والنَّفيس، وسيبذلون الأموال الطائلة - إن كانوا من ذويها - لقاء حفنات من السِّنين، أو الشُّهور، أو الأيَّام، يشترونها إن كان الأمر ممكنًا!

والدَّواء الَّذي قيل عنه - مؤخَّرًا - إنَّه يجدِّد الحيويَّة في الشُّيوخ، سبقته محاولات أخرى مماثلة، من أبرزها: ذلك الدَّواء الَّذي توصَّلت إليه الطبيبة الرومانيَّة (آنا أصلان) منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وعُرف باسم (٥ - ٣)، وقيل عنه يومذاك إنَّه يطيل العمر، وقد تهافت على طلبه الكثيرون، لكن سرعان ما انقشع الحلم، واتَّضح - بعد شهر - أنَّ الأمر ليس بحجم الضجة الَّتي صحبته! ولا بقدر الدعاية الَّتي روَّجت له! ومن ثم اختفى الدَّواء فجأة، وسكت الحديث من جولة، وعادت القلوب المتطلعة كسيرة الخاطر خائبة الرَّجاء!

والأعمار - دائمًا - بيد الله، إنَّ الأمل صورة من صور الحياة، إن لم يكن أجمل صورها وأحلاها، وإنَّ الإنسان - بطبعه - هلوع جزوع، وهو أمام رغباتهِ ضعيفٌ، يجري وراء أيَّ بارقة أمل، إلَّا أنَّه قد تغيب عنه في غمرة لُهاثه خلف آماله وأمانيه أنَّ الآجال بقدر، وأنَّ الجميع أمامها سواسية.

لكن لو أنَّه - فعلًا - اكُتشِفَ عقار ناجع يجدد الحيويَّة في الشَّيخوخة، ويُبطئ بسباق العمر، ويطيله ضعفين أو ثلاثة - وهذا كله على سبيل الافتراض - لو أنَّه حدث، وأصبح العقار في متناول كل يد، ماذا ستكون حال البشريَّة؟ كيف سيعيش النَّاس؟ هل سيجدون ما يسد رمقًا أو يبل صدى؟ هل سيكون هناك متَّسع لعيشهم على وجه البسيطة؟

قد تضيق الأرض بما رحبت، وتعجز مواردها عن إطعامهم، وإروائهم، وإلباسهم، وقد يتعايشون كما يتعايش كبار السمك مع صغاره، وكواسر الطير مع دواجنه الوادعة؛ فيأكل بعضهم بعضًا، وقد تتبلَّد المشاعر والأحاسيس، أو تموت تمامًا، وسيكون كل هذا إيذانًا بانتهاء عهود الحياة الجميلة حقًّا!

أفليست الحياة الَّتي سنَّها الله للإنسان وقدر لكل امرئ نصيبه منها ودوره فيها حياة تتلاءم - على قصرها - مع طموحاته وصراعاته، ومع ما أودعه الله في هذا الإنسان من الأفكار، والمشاعر، والعواطف، وما أتاحه له من أسباب العيش والسعي في مناكب الأرض؟!

وبعد، فإنَّها مجرَّد هواجس، وقد يجوز عليها ما يجوز على الخيال الشَّاطح!![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨١٠٨) - بتاريخ ٨/ ٧/ ١٤١٥هـ.

عندما يجافي الخبر الواقع

تسمع، أو تقرأ خبرًا من الأخبار، فتشعر - بعفويتك أو وعيك - بأنَّ وراء الخبر ما وراءه، وأنه (مطهوٌ) بعناية في أحد مطابخ السِّياسة الكبرى - أو حتَّى الصغرى أحيانًا - على أيدي أمهر الطهاة، بل أعتاهم!

وما دمت أنَّك قد أدركت أن الخبر هدفٌ يراد به الوصول إليه، وليس هو مجرد خبرٍ، فإنَّك تعرض عنه صفحًا، وتستعيذ بالله من الشيطان الَّذي أوحى به، ومن شر ما أوحى به!

ولكن ما أكثر من ينخدع بالخبر السِّياسي فور تلقيه؛ فينبهر به، وينجرف في تياره، ويعدُّه من مسلمات الأمور ووقائعها، فلا يقبل بشأنه حوارًا، وقد تلقاه دون أن يدرك أن الخبر - أولًا - يحتمل الصدق والكذب، وأنه يجب أن يخضع إلى المراجعة، والتروي، والتمحيص، وإعمال المنطق والعقل - ثانيًا - وذلك قبل هضمه، أو رفضه، وقد تكون غيوم التَّاريخ، ومقتضيات المصالح السِّياسيَّة والاقتصاديَّة - ثالثًا - غائبة عن الذهن؛ فتحتجب الرؤى، أو يقصر مداها عن الأفق!

لقد أصبح الخبر السِّياسي في زماننا فنًّا إعلاميًّا ماهرًا ورهيبًا، تتفتَّق عنه أذهان جشعة ماكرة خبيثة، يشوبه كثيرٌ من الاختلاق، وقد يكون مختلقًا في جملته وتفصيله، بل هو صناعة متقنة، يجيد المختصُّون إنتاجها، وتسويقها، وإقناع الآخرين بها!.

وصُنَّاع الخبر لا بدَّ أن يكونوا أصحاب هوى وغاية، ونحن لا نلوم أربابه عليه،

ولا نستغرب عليهم مشاعرهم؛ فهذا هو الظن بهم دائمًا؛ إذ إنهم يخدمون مآربهم الظاهرة والباطنة، وقد عوَّدونا، أو أرغمونا على سماع هذا الخبر وقراءته، عبر وسائل إعلامهم الَّتي ملأ ضجيجها الأرض والجو، كما عوَّدوا الغافلين منا على تلقيه بصدور مفتوحة، وقلوب فارغة.

وليس الغافلون منَّا - أو من غيرنا - أفرادًا فحسب، ولكنَّهم - أيضًا - مؤسَّسات إذاعيَّة، وصحفيَّة، ووكالات أنباء، ووزارات إعلام منبثة في مختلف أرجاء العالم، وعلى الأخص في أرجاء ما يسميه أصحاب الخبر السِّياسي بـ (العالم الثَّالث)، أي: العالم النَّائم في أحضان الغفلة!

إنَّ هذا الخبر قد يكون إرهاصًا لأمرٍ ينويه أصحابه، أو لخلخلة ترابط مجتمع من المجتمعات، أو لإثارة البلبلة، وبذر الفتنة بين فئات النَّاس، أو بين محكوم وحاكم، أو بين دولة وجارتها، أو - وهذا أضعف الاحتمالات - لصدم الروح المعنويَّة المتطلعة، وتحطيمها في النُّفوس، وتأتي النتيجة - في النهاية - لتصب في حوض العدو ومصلحته!

ولا مراء أنَّ القوى الَّتي تسيطر على مجريات السِّياسة الدوليَّة ذات درايات، وممارسات، وتجارب كثيرة وناجحة، في هذا المجال، وقد أعطت الأحداث والنتائج صنوفًا من الدلائل على هذا الأمر، وانتهت إلى أنَّ الخبر المصنوع المخطط له - مع الأسف - يفعل فعل السِّحر الحرام، الَّذي يفرق بين المرء وزوجه، لدى النُّفوس الطيبة الضعيفة الَّتي تتلقى النبأ - عادة - على علاته، دونما وعي بما وراءه، ولا إدراكٍ لما يرمي لغيه صانعوه وطابخوه، وسعاته، ومُرَوِّجوه!

لقد أُتيَ العرب كثيرًا من هذا القبيل، وعانت بلادنا خاصَّة من ألوان الدسائس

الإخباريَّة، لكن صمود النُّفوس هنا كان أقوى، وهاجس التَّعقُّل هو الغالب عليها أبدًا بحمد الله.

أما بعد، فإذا كنَّا، وكان العرب غير قادرين على صنع الخبر السِّياسي المضاد؛ كيما يوجِّهوه إلى شعوب الأرض، ويدخلوه في قنوات إعلامها كما يفعل أعداؤنا، فإنَّنا - على أيَّة حال - في حاجة إلى الوعي الإعلامي المتلقي على الأقل لأنَّه أولى خطوات الدَّرب الصحيح.

إنَّ هذه هي مسؤوليتنا من الدَّاخل، أي: مسؤوليات أجهزة الإعلام العربيَّة!! ولكن؟![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨١١٥) - بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٤١٥هـ.

السَّرقات العلميَّة أيضًا

شدتني كلمة الدكتور/ عبد العزيز بن صالح بن سلمة المنشورة في (صحيفة الجزيرة) يوم الثلاثاء الفائت، وكانت حول: (السَّرقات العلميَّة) الَّتي كادت تصبح ظاهرة لا تقتصر على وسط العلمي في المعاهد والجامعات؛ حيث إن بعض الأدعياء ينالون - عن طريقها - شهاداتٍ عليا لا تنمُّ - حتمًا - عن موهبة متميزة لدى أصحابها، أو ابتكار، أو جهد ذاتي؛ لأنَّها اقتباس مموّه للأفكار والعبارات، أو سطو صريح على أعمال سبقوا إليها، وقد تمت في غياب من الوعي والضمير، وفي جو ضبابي مشحون بالغباء، والاستغباء، وفقدان المتابعة.

وباب الاعتداء على الحقوق الأدبيَّة للآخرين، باب واسع وقديم، وتاريخنا الثَّقافي لا يخلو من بعض صوره، بل إنَّ بعضًا من أعلام هذا التَّاريخ قد وُصفوا بالاعتداء، ومن هؤلاء: العالم الموسوعي صاحب التَّصانيف الكثيرة/ جلال الدين السيوطي - رَحِمَهُ اللهُ -، حتَّى قيل: لو تُرك لكل مسألة في كتب السيوطي حريَّة الانطلاق إلى مظانها الأولى لما بقي في كتبه شيء يخصُّه!.

ولئن صحَّ شيء من هذا، فإنَّه ليس - بحال - على نمط سرقات اليوم الَّتي تغمط الحق غمطًا، ولا تدع لذويه أدنى حد من الاعتراف بالفضل!

ويبدو أنَّ أرباب تلك الأساليب من المعاصرين لا يخشون ملامًا، أو عتابًا؛ فهم لم يقْدِموا على ما أقدموا عليه إلَّا وقد تجردوا من وازعه الإحساس الفكري، فأصبحوا أشبه بالمرضى المستحقين للشفقة، وأغلب الظن أنَّ دوافعهم إلى ذلك هي الوصول

إلى حال مناسبة من الوجاهة، والحصول على (جواز) صعود إلى وضع وظيفي أفضل، ولم تكن رغبة البحث المجرد لتخطر على بال!

ونحسب أنَّ اللَّوم في جملته ينصب على المؤسَّسات الأكاديميَّة الَّتي قبلت من هؤلاء أبحاثهم المقتبسة، أو المسروقة، دون توثق، ومنحتهم بموجبها وثائق النجاح، وكأنَّما تلك المؤسَّسات والمشرفون على إعداد البحوث كانوا في غفلةٍ من الأمر! ولا مراء أن العتب يتضاعف عندما تكون المؤسَّسة ذات عراقة علميَّة!

ومن المؤسف المؤلم - بعد ذلك كله - أن ينكشف المخبوء بعد زمن فتنفضح الحقيقة، ويقف الخاص والعام على واقع الحال، ومع هذا فلا تجد من يحرك ساكنًا، ولا من يعيد إلى حرمة العلم، والبحث، والأمانة اعتبارها!

وقد يشار في هذا الشَّأن بالبنان إلى بعض الجامعات العربيَّة، وهي إشارة تغمز من قناتها، وتهز صورتها في الذهن بلا ريب.

إلَّا أنَّ الأمل يحدو أهله بأن لا تتغلَّب المجاملة على نفوس المُفَكِّرين، والباحثين، والمتخصِّصين، وأساتذة الجامعات، وألَّا يحجموا عن الإفصاح عن أي عبثٍ، أو خطيئةٍ بحق العلم.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٣١٢٢) - بتاريخ ٢٢/ ٧/ ١٤١٥هـ.

شهوة الإنفاق

ليست الكتابة حول هذا الموضوع جديدة؛ فقد كُتب عنه مرارًا عبر الصَّحافة على مدى سنوات طوال، ولكنَّه - مع ذلك - ما زال يستوعب مزيدًا من الحديث؛ فأسبابه ما زالت قائمةً في النُّفوس، وقد كاد أن يمثل ظاهرة في حياتنا.

وأعني بهذا (شهوة) الإنفاق العشوائي، أو (هواية) الشراء لدى الكثيرين منَّا؛ لحاجةٍ أو لعدمها، دونما تبصُّر، أو بصيرة!

فقد يذهب بعضُ النَّاس إلى إحدى أسواق التموين المنزلي، وليس واردًا في حسبانه أن يمتار منها، وإنَّما هي الرغبة المجردة في تزجية جانب من الوقت، أو حب استطلاع ما في هذه الأسواق، أو استعراض أرتال الغادين والرَّائحين فيها، وإن شئت فقل: إنَّها سجيَّة الفضول!

وهناك يجد صاحبنا نفسه تجاه شتَّى المعروضات، وتجاه مغريات أساليب العرض، بل أمام الفراغ في النَّفس، توفر اليد ذاتها وسخائها؛ فيندفع تلقائيًا إلى الشراء بلا حساب، ولا يكاد يترك السوق إلَّا وقد أخذ معه حمل بعير!

وفي المنزل، قد يتطرق الفساد إلى كثيرٍ من المخزون، وينتهي الأجل به قبل قبل أن يُستهلك، فيكون مصيره صناديق النفاية!

وربما ذهب بعض النساء إلى أحد المجمعات التجاريَّة، وفي نيَّة إحداهن أن

تشتري سلعة معيَّنة تحتاج إليها، فلا تعود إلَّا وقد احتضنت أشتاتًا من لفائف الأقمشة، والأحذية، والعطور، وملابس الصغر، والكبار وسواها!

والنساء - عادة - حفيَّات بشراء ما يحتجنه، وما لا يحتجنه، من أمور اليوم والغد، ولا يجد بعضهن في هذا شيئًا من الغضاضة، أو الحرج، أو البأس!

وهن - بالتَّأكيد - يشترين أشياء لا يحتجنها إلَّا نادرًا، وإن تكن هذه الأشياء تكلف كثيرًا من المال، بل قد تجلب الدَّين! ومن المؤسف أن تجد من متوسِّطي الحال من لا يتورعُّون عن مجاراة ميسوريه.

وتشتري الواحدة منهن الحذاء أو الفستان؛ لتلبسه لبسة واحدة في مناسبة عابرة، ثمَّ تُوْدعه إلى خزانة الثياب بصورة شبه أبديَّة؛ ليعفو عليه الزَّمن، ويصبح في حكم غير الصَّالح للاستعمال!

وقد لا يُلمن على هذا، وإنَّما الملام يقع على الَّذين أرخوا الجيوب لهنَّ - أي: الأزواج والأهل - الَّذين هم - الآخرون - قد يعانون من الغفلة، وتدني الإدراك!

وتلعب الإعلانات الخادعة السخيفة بعقول كثيرٍ من الرجال والنساء، والكثيرات، وتستهوي البسطاء من النَّاس، وتستدرجهم إلى السوق في براعة منها، وبلاهة منهم!

ومن البدهي أن يلمح مصدِّرو البضائع إلينا ومستوردوها، وباعتها مدى تلك (الشهوة) الشرائيَّة الشرهة لدينا؛ فيتفنَّنون في ابتكار أساليب الإغراء، والإغواء، والاستهواء، يجرون (التخفيضات) الوهميَّة، وينظمون مسابقات الشراء، ورصد الجوائز لها، وهي جوائز قد يفوز بها واحد، أو اثنان من جمهور المستهلكين - وهم بالملايين - فتصبح

الشهوة شهوتين، وهنا لا تقف المبالغة في الشعر الَّذي حدده البائع لبضاعته حائلًا دون شهوات زبائنه.

ومن عجبٍ أن ترى كثيرين ممَّن سدروا في غواية الشهوة هذه، يدركون سوأها جيِّدًا، ويمقتونها ولو بألسنتهم، بيد أنهم لا يُقدمون على كبحها، على أنَّ الحكم هنا ليس عامًا - ولا يجب أن يكون كذلك - فهناك من لديه مناعة ذاتيَّة، بدافع من وعيه الديني، ومن وضعه التربوي الخاص، وهي مناعة تنأى به عن غواية الاستهواء، والإسراف، فهو يرعى للنعمة حقها، وللإنفاق حده.

وفي ظني أنَّ أحد أوجه العلاج لهذه الحالة يدخل في مفهوم (التَّربية الوطنيَّة) الَّتي تفتقدها مدارسنا بصورة منهجيَّة، ومن الأولى بنا - قبل أي شيء - أن نفسح لها مكاناً في مناهج التَّعليم، وأن ننشئ أبناءنا منذ نعومة أظفارهم على مفاهيم الحياة الصحيح مسلكًا وعملًا.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨١٢٩) - بتاريخ ٢٩/ ٧/ ١٤١٥هـ.

ومات الرّفاعي

فُجِعَ الوسط الأدبي في بلادنا بفقد عَلَم أشمّ من أعلامه، وهو الأستاذ الصَّديق/ عبد العزيز أحمد الرفاعي؛ الذي اخترمته أيدي المنون صباح أول أمس، كما اخترمت من قبله - وعلى فتراتٍ متقاربةٍ - عددًا من كتَّابنا وشعرائنا، كالأستاذ/ أحمد مُحَمَّد جمال، والأستاذ/ حسين بن سرحان.

لقد ذهلت للخبر حقًّا، واعترتني حالة من الوجوم، ولكنَّ الموت حقٌّ، والنِّهاية محتومة، والمصير واحد لكلِّ كائن، ولا مفرَّ من قضاء الله، ولكل أجلٍ كتاب.

وعدت أتذكَّر قصيدة له، تُعَدُّ من عيون الشعر - وإن كان مُقِلًّا في الشِّعر - وهي قصيدته الَّتي قالها قبل شهور بمناسبة تكريمه في نادي جدَّة الأدبي، وقد كانت بعنوان: (سبعون)، وهي معبِّرة عن أحاسيس وجدانيَّة طافت بخيال الشَّاعر، وقد أربى على السبعين من عمره تجاه الحياة والممات.

وكان ممَّا قال فيها:

(سبعون) قد وفد الشِّتاء يزورني ... والنَّارُ قد خمدت وليس ثقاب

حنَّت إلى عبق التراب جوانحي ... لا غرو يشتاق التُّراب تراب

في يقظتي أغفو، وقد يجفو الكرى ... جفني فيحلم بالمنام طلاب

لقد كان شاعرنا الفقيد يحس - من خلال حروف قصيدته - بشيء يعتلج بداخله،

يحس بهواجس تتحرك في نفسه، ويزخر بها صدره، كانت القصيدة تعبيرًا عن شيء قريب، أهكذا الحياة؟

وطويت القصيدة على مضض، وقلت في نفسي: إنَّ الرفاعي يرثي نفسه سابقًا أقرانه الشعراء!

كان الرفاعي - رَحِمَهُ اللهُ - عطر السِّيرة؛ فهو رحب الصَّدر، سمح الطَّبع، رقيق الحاشية، مهذَّب الروح، طيِّب المعشر، صادق الطويَّة، لا يحمل ضغنًا ولا سوءًا، لم يؤثر عنه ما يريب، أو يشين، ولم يعلق بسمعته دنس، أو دخن، وقد وصفه أحد عارفيه بأنَّه: الرجل الذي لا يشكو ولا يشتكي، ظلَّ طيلة حياته الوظيفيَّة أنموذجًا للموظَّف المستقيم، محبوبًا من زملائه، كما ظلَّ على مدى رحلته الأدبيَّة الَّتي أوفت على الخمسين عامًا موضع حب مريديه وأنداده من: الأدباء، والباحثين، والصَّحفيِّين، بل محلَّ إكبارهم وإعزازهم، نذر براعته لخدمة الكلمة الرَّزينة، والرأي الرَّصين، وعاش في أذهان زملاء الكلمة والرأي أديبًا مثاليًّا.

ساهم بقلمه المتمكِّن، وبعطائه الثرّ، وبحيويَّته المتدفِّقة في إنماء الحياة الفكريَّة والصَّحفيَّة والأدبيَّة ببلادنا مساهمة صادقة لا يحس بها تمام الإحساس إلَّا القلة ممن يعرفونه؛ لأنَّ الرجل كان متواضعًا يؤثر الصَّمت على الادَّعاء، ولا يأبه بالبهرجة، ولا يقيم للمظاهر وزنًا.

وكان - عندما يكتب - موضوعيًّا في تناوله للفكرة، حياديّ النظرةِ والاستنتاج، بعيدًا عن جموح العاطفة الذاتيَّة، يسعى إلى غايته بروح الواثق المطمئن إلى صواب منجاه.

وقد ظلَّ الرفاعي حفيًّا بتنشيط الحركة الثقافيَّة والأدبيَّة؛ فكانت داره المأنوسة

ملتقىً أبيًّا فذًّا لروّاد الأدب وشُداته - على حدٍّ سواء - ليس من أبناء بلاده فحسب، بل من شتَّى أقطار الوطن العربي المقيمين بين ظهرانينا، فكانت داره ملتقى النُّخبة الطَّيِّبة من هؤلاء سواء كان في جدة، أو الرِّياض.

وأخيرًا فلا نقول إلَّا كما قال:

طُوبَى لِمَن جَعَل المحبَّةَ جدولًا ... وَسَقَى أحبَّتَهُ فطَابَ وطابُوا

رحمه الله رحمة واسعة.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (١٠٦٥٨) - بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٤١٤هـ.

هل العمل ضروري لها؟

أكتب رأيي هنا، وأنا على خشية من أن يُمنى بالهزيمة من أوَّل وهلة؛ فقد يدركه الفشل، ويذهب بريحه، لكنِّي أدعو المعنيَّ به إلى التَّمهُّل قليلًا وإلى التَّأمل، وحسب الكاتب أن يقول كلمته، ويمشي إلى شأنه!.

فمن المعلوم أن جامعاتنا تُخرج كل عامٍ آلافًا من الجامعيَّات في شتَّى الاختصاصات العلميَّة والإنسانيَّة، وتستدعي الحاجة عمل بعض متخرِّجات هذه الاختصاصات؛ تحقيقًا للاكتفاء الذَّاتي من القوى العاملة السُّعوديَّة، ولأنَّ الضرورة الوطنيَّة تقتضي ذلك في أحيان كثيرة.

والمجال ما زال أمام الكثيرات منهنَّ واسعًا، وسيظل كذلك لعدَّة سنوات قادمة؛ ليخدمن في مجالاتهن المناسبة على الوجه المرضي إن شاء الله.

إلَّا أنَّ بعض الاختصاصات قد أصبح الطلب لخرِّيجاتها أقل من العرض كثيرًا، وهنا أعداد غير قليلة منهنَّ ينتظرن في الطوابير منذ أمد، وهذا الأمر طبعي، وهو ما بعث لديَّ السؤال الَّذي أوردته في رأس هذا الكلام: هل العمل ضروري لها، أو لهنَّ؟

إنَّ عمل المرأة في غير المواقع الأساسيَّة لها أمر يحتاج إلى وقفة، وأقصد بالمواقع الأساسيَّة تلك الَّتي هي من شأن المرأة مع جنسها كالتَّدريس، أو الَّتي تستوجبها الحاجة كالطِّب، والخدمات المساندة له - مثلًا - على أنَّ مجال التَّدريس قد ضاق أفقه بالنِّسبة إلى المتخرِّجات بعد أن أربى عددهن عن المطلوب.

وأمَّا في غير ذلك، أو ما يشبهه، فلا يجب أن تكون الوظيفة مطلبًا؛ ولا يحسن أن يصل السِّباق إليها والزحام حولها إلى ما هو حاصل، خاصَّة متى كانت المتخرِّجة في غنى ماديّ عن الوظيفة، وكانت - في الوقت نفسه - ذات أطفال، مسؤوليات منزليَّة كبيرة؛ إنَّها - في هذه الحالة - أمام وظيفة أكبر، وأهم من أيَّة وظيفة أخرى، وما أكثر من هنَّ كذلك، والحمد لله!

والمرأة الَّتي أعنيها إنَّما هي امرأة عربيَّة مسلمة، تدرك واجبها الخاص تجاه منزلها وأسرتها، وتدرك أنَّ الوظيفة الطبيعيَّة لها تكمن داخل المنزل، وهي وظيفة في الصميم من احتياجات المجتمع والوطن، بل هي من أشرف وظائف الحياة على الإطلاق، وأَعُدُّهَا تاجًا على رأس صاحبته.

ويكفي هذه المرأة فخرًا واعتزازًا أن تكون أمَّا مثقفة متعلِّمة؛ تحتضن أفراخها صباحَ مساءَ؛ فترعاهم وتتولَّى تنشئتهم، وتربيتهم التَّربية الفضلى إلى أن يشبُّوا عن الطوق، بل إلى أن يلجوا في معترك الحياة، ويكفيها أيضًا أن تقف على إدارة منزلها، وتتحسَّس شؤونه، وترتب أوضاعه؛ ليكون البيتَ المثالي حقًّا.

وقد لا يليق بمثل هذه المرأة - وهي في سعة من رزقها غالبًا - أن تدع فلذات كبدها مع خادمة طارئة وافدة؛ غريبة عن المجتمع بطباعها وعاداتها، وسلوكيَّاتها، ودينها، وقد تكون ناقمة محرومة من هذه الحياة الَّتي وجدت نفسها في وسطها بعد حياة قاسية مريرة.

ألَّا يخلق بهذه المرأة الجامعيَّة السُّعوديَّة أن تعرف أن وظيفة تربيَّة الطفل، وتدبير المنزل من أعظم المهام، وأنَّها تتطلب تأهيلًا خاصًّا قد يرقى إلى المستوى التَّعليمي

العالي؟ فكيف بها تترك الأمر لخادمة لا تتوفر بها أبسط الشروط وأدناها؟ أليست أولى بهذا بحكم تعليمها، وثقافتها، وأمومتها؟

إن المرأة العاقلة - ولا شكَّ - حَرِيَّة بأن تدرك ذلك وتفخر به، ولعلها تشعر - في قرارة ذاتها - أنَّ من واجبها أن تفسح طريق الوظيفة العامَّة - بعد ذلك - لسواها، فلا تزاحمهن!

ولست أنكر على أحدٍ حقَّه في الفرص المتاحة للجميع، ولكن عندما تصبح الفرص شحيحة، فإنَّه يجدر بالنُّفوس الكبيرة الكريمة أن تنسل من (الطابور) في هدوء وإباء، وشمم، وبنفس راضيةٍ مرضيَّة![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨٠٨٧)- بتاريخ ١٦/٦/١٤١٥هـ.

لنتعامل مع هذا الأدب بحذر!

لسنا ضد الأدب الشَّعبي (الجيِّد)، ولكنَّنا ضدّ الرديء الَّذي تطفح به معظم صحفنا، والَّذي اكتسح برداءته السُّوق، ومرد رأينا أن هذا الأدب الرديء قد أفسد الأذواق، وضايق الأدب الفصيح في مظانه.

وكذلك نحن ضد التَّوسُّع في نشر الأدب الشَّعبي عامَّة، ويجب أن يكون النشر بمقدار؛ لأنَّ هذا التَّوسُّع يأتي على حساب الأدب الفصيح والأصيل، الَّذي هو أدب الأُمَّة العربيَّة جمعاء من محيطها إلى خليجها.

والتَّوسُّع في نشر الأدب الشَّعبي أو (العامي) هو وجه آخر من أوجه استعمال اللَّهجات العاميَّة كبديل للغة الفصحى، وقد شاعت في مستهلِّ هذا القرن دعوة مشبوهة أوحى بها أعداؤنا، وتولى كبرها بعض الأفراد المنتمين إلى بعض الأقليات الدينيَّة، أو العرقيَّة في البلاد العربيَّة، وقد خُدِع بهذه الدَّعوة - وعن حسن نيَّة - أناس ممن لم يدركوا كنهها وأبعادها الخفيَّة، إذ لا نحسب أنَّ عربيًّا صادق الولاء والإحساس يقبل بها.

واللُّغة الفصحى - كما نعلم - هي (وعاء) القرآن الكريم، وستظلُّ - إن شاء الله - خالدة بخلوده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[1].

---

(١) سورة الحجر: ٩.

ومن جانب آخر، أيُّ عاميَّة يقصدها أولئك الموتورون أو المخدوعون؟ أهي عاميَّة مصر؟ أم العراق؟ أم سورية؟ أم عاميَّة النَّاس في المَملكَة العربيَّة السُّعوديَّة؟ أم سواهن؟

إنَّ استعمال أي من هذه العاميَّات، أو انفصال كل قطر بعاميته يعني القطيعة الفكريَّة بين شعوب الأُمَّة، ومن ثمَّ التبعثر والضياع، ةهذا الأمران اللذان ينشدهما أعداؤنا، كفانا الله شرهم وخبثهم!

والتَّوسُّع في نشر الأدب الشَّعبي وترويجه أمر مؤسف، بل مؤلم ومخيف، وهو وسيلة خطيرة؛ لترسيخ روح اللَّهجات المحليَّة، وطغيان العاميَّة على الفصحى.

فلنأخذ من الأدب الشَّعبي العامي أجوده، وليكن ذلك في حدود ما توجبه الحاجة، فإنَّ هذا الأدب يحفل بصور مشرفة من القيم النَّبيلة، والطِّباع الكريمة، ومن الرجولة، والشهامة، والمروءة، بل وفيه تاريخ ما أهمله التَّاريخ في أحيان كثيرة.[1]

❁❁❁

(١) نشرت في مجلة الجيل- العدد (١٧٤)، في ١- ١٥ ربيع الآخر ١٤١٤هـ.

(مع الرِّياض) في عددها الألفي العاشر

تعود بي الذكرى إلى ما قبل ثلاثة وثلاثين عامًا؛ حيث إنها طُويت صفحة من تاريخ الصَّحافة السُّعوديَّة، لتفتح صفحة أخرى، وذلك بصدور قرار مجلس الوزراء بإنهاء امتيازات الصُّحف القائمة يومذاك، طبقًا لنظام المطبوعات، ونقل امتيازها إلى مؤسَّسات بموجب تنظيم سُمِّي فيما بعد: (نظام المؤسَّسات الصَّحفيَّة).

وبهذا انتهى عهد ما يسمَّى بـ (صحافة الأفراد)؛ لتبدأ صحافة المؤسَّسات نشاطها، وقام - على إثر ذلك - عدد من المؤسَّسات الصَّحفيَّة، وكانت من ضمنها (مؤسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة)، وقد تولى أمر إنشائها نفر من أعيان البلاد ومثقَّفيها، وضمت في فترة تأسيسها ثلاثين عضوًا.

ولعلَّ من الحَيف تجاهل الدَّور الكبير الَّذي أدته صحافة الأفراد، بيد أنَّ سُنَّة التَّطور اقتضت ذلك التحوُّل في تاريخ صحافتنا.

وهنا قد يسأل سائل - بعد ثلث قرن من صدور نظام المؤسَّسات الصَّحفيَّة - هل حقق هذا النِّظام لصحافتنا كل ما كانت تصبو إليه؟ وكان جوابي: أنَّ هذا النِّظام قد حقَّق لها الكثير، على أنَّ أي نظام لا يمكن أن يخلو من السَّلبيَّات، وفي نظري أنَّ إيجابيَّات نظام المؤسَّسات الصَّحفيَّة تفوق سلبيَّاته كثيرًا، وقد يكون الجانب التطبيقي لبعض مواده - في بعض الفترات - قد أساء إليه سواء أكان هذا من المؤسَّسات الصَّحفيَّة نفسها، أو من سواها.

لقد بادرت مؤسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة - فور قيامها - إلى إصدار صحيفة (اليمامة)

وهي صحيفة أسبوعيَّة، إلَّا أنَّها تحوَّلت إلى مجلَّة بعد سنوات قلائل، ثم أصدرت المؤسَّسة في مستهلّ عام (١٣٨٥هـ) صحيفة (الرِّياض) وهي صحيفة يوميَّة، - عدا يوم الجمعة - ثمَّ صارت تصدر طيلة أيَّام الأسبوع، وهي الصَّحيفة الَّتي تبلغ اليوم العدد الألفي العاشر من عمرها المديد إن شاء الله.

إنَّ (الرِّياض) بدأت بداية بسيطة بحساب اليوم، ولكنَّها كانت جيِّدة بحساب تلك الأيَّام، وتولَّى أستاذنا الكبير الشَّيخ/ حمد الجاسر أمر الإشراف عليها ريثما تتمُّ موافقة الجهة المختصَّة على رئيس التَّحرير المرشَّح من الجمعيَّة العموميَّة للمؤسَّسة.

ويُعدُّ الأستاذ/ حمد الجاسر أبًا للمؤسَّسة - إن جاز هذا التعبير - فهو صاحب المبادرة لاختيار عدد من الأشخاص الَّذين وقعوا طلبًا إلى وزارة الإعلام بإنشاء المؤسَّسة، وبعد أن وردت الموافقة على هذا اجتمع المؤسسون في فندق (زهرة الشَّرق)؛ لكي يرسموا الخطوات التنفيذيَّة لمباشرة المؤسَّسة مهامها، وترتيب أمر طباعة صحفها، وقد اختاروا الأستاذ/ حمد رئيسًا لتحرير (اليمامة)، الَّتي تقرَّر أن تكون أولى إصدارات المؤسَّسة كما قلت.

وظلَّ الأستاذ/ حمد مشرفًا على (الرِّياض)، إلى جانب رئاسته تحرير (اليمامة)، حتَّى وردت الموافقة على اختياري رئيسًا لتحرير (الرِّياض).

وقد استقبل النَّاس (الرِّياض) بحرارة صادقة؛ فهي أول صحيفة يوميَّة تصدر عن الرِّياض، وقد كانوا يتطلَّعون إلى صدورها من قبل في لهفةٍ وشوق.

لم تكن مؤسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة تمتلك مطابع خاصَّة بها؛ فكانت تطبع (اليمامة، والرِّياض) لدى مطابع الرِّياض الواقعة في منتهى (شارع المرقب)، والمملوكة لشركة

الطِّباعة، والنشر الوطنيَّة، ومن البدهي - والحالة هذه - أن يكون هناك الكثير من المعاناة لدى القائمين على تحرير الصحيفتين.

وكانت (الرِّياض) - في بداية صدورها - تطبع خمسة آلاف نسخة، وما كانت الإمكانيات الفنيَّة والطِّباعيَّة مهيَّأة تمامًا؛ لتساعد الصَّحيفة كيما تخرج بالصُّورة الَّتي يتوقعها القرَّاء أو يطمح إليها أصحاب المؤسَّسة، كما كانت الصُّحف إزاء هذه الظروف تضطر أحيانًا إلى خفض عدد صفحاتها.

ومع ضعف تلك الإمكانيات، فإنَّ المرء لن ينسى جهود الرَّعيل الأول من روَّاد فنّ الطِّباعة الصَّحفيَّة بمدينة الرِّياض، أولئك الَّذين كانوا يقومون على أعمال الصف، والتنضيد، والحفر، والطِّباعة، من أمثال: عبد الرَّحمن الصميت، وعبد الله العمير، وعبد الرَّحمن بن خريف، أو ينسى جهود زملائهم من الإخوة العرب الَّذين لم تسعفني الذَّاكرة بأسمائهم.

وحفلت (الرِّياض) بالكثير من المقالات الهادفة الَّتي عالجت بعض القضايا: الاجتماعيَّة، والتَّعليميَّة، والأدبيَّة؛ إمَّا على شاكلة (أعمدة ثابتة)، أو (يوميَّات)، أو بشكل مستقل، إلى جانب مقالات متنوعة أخرى ترد إليها من ذوي الاختصاص، أو من الشداة الَّذين أخذت الصَّحيفة بأيديهم.

فأصبح بعضهم فيما بعد كتَّابًا مرموقين، وأولت الصَّحيفة شكاوى الجمهور ومطالبهم اهتمامًا خاصًّا شغل حيزًا من مساحتها، وكل هذا إلى جانب الأخبار المحليَّة والعربيَّة، والعالميَّة، والتعليق عليها قدر المستطاع.

وممَّن شاركوا في (الرِّياض) بمقالاته، الأساتذة: عبد العزيز الرفاعي، وسعد البواردي، وعبد المحسن بن مُحَمَّد التويجري، وعثمان الصَّالح، ويوسف السلوم،

ونور ولقمان يونس، ومُحَمَّد السَّيَّاري، وإبراهيم العمار، وعبد العزيز النِّقيدان، وإبراهيم العلي، وعبد الله خشيم، وخليل الفزيع، وسليمان الخويطر، وعبد الله أحمد شباط، والدكتور/ مُحَمَّد بن أحمد العيسى، وأبو هاني - عبد الله العبادي - وسليمان القاضي، وعبد الرَّحمن الهليِّل،

وأصبح للرياض - منذ شهورها الأولى - عدد من المخبرين، والمحققين الصَّحفيين غير المتفرغين، أمثال الأخوة: عبد الرَّحمن بن صالح الشَّثري، وعبد الرَّحمن بن راشد الرويشد، وعبد الكريم ميرزا، وعبد الله بن هلال العسكر.

واتَّفقت (الرِّياض) مع وكالة (الأسوشايتد برس)؛ كي تمدها بصور الأحداث العالميَّة، وكانت هذه الصُّور تصل بالبريد بعد أسبوع من حدوثها.

وأدخلت (الرِّياض) - في وقت مبكر جدًّا - فن الرسم الهزلي (الكاريكاتير) على صفحاتها، وذلك بعد أن أعلنت عن رغبتها في رسَّام مختص في هذا الفن؛ فتقدَّم لها بعض الهواة، واختارت أحدهم، وهو الأستاذ/ علي الخرجي، فكانت بحقٍّ رائدة في هذا المجال.

لم تتجاوز (أسرة) الرِّياض المتفرِّغة للعمل بالصَّحيفة أصابع اليد الواحدة عددًا، وهم على وجه التَّحديد - إضافة إلى رئيس التَّحرير - الأساتذة: عبد العزيز بن عبد الله التويجري (الَّذي أصبح مديرًا للتَّحرير)، وعبد العزيز بن حسن العمران (الَّذي صار سكرتيرًا للتحرير) والدكتور/ فوزي هنانو (القائم بأعمال الترجمة، وهو من سورية)، ومُحَمَّد بهجت (ويعمل مصححًا، وهو من مصر).

ولم تضم مكاتب (التَّحرير) سوى غرفتين، ويشارك رئيس التَّحرير في إحداهما مدير التَّحرير وسكرتيره.

كما لم يكن للصحيفة مصور خاص بها؛ بل كانت تستعين عند الحاجة بإحدى محلَّات التَّصوير في شارع (الوزير)، وكانت أجرة التَّصوير تشكِّل (قلقًا) لدى إدارة المؤسَّسة بالرغم من أنَّ الوضع المالي كان جيِّدًا.

وعلى ذكر هذا (القلق) فلطالما نشأ (فتور)، أو (وقفة نفس) في العلاقة بين (الإجارة) و(التَّحرير)، ذلك أنَّ الإدارة ترى أنَّ (التَّوسُّع) في الصرف يُعرض المؤسَّسة إلى الخسارة، بينما التَّحرير يسعى إلى تحقيق أوفر حظ ممكن من النجاح الصَّحفي، الَّذي سينتج عنه في النهاية إقبال على الإعلان في الصَّحيفة زيادة في مبيعاتها، ولعلَّ هذا من الأسباب الَّتي حملت بعض رؤساء التَّحرير على مغادرة مواقعهم بسلام.

ويبدو أنَّ هذا الأمر ليس خاصًّا بمؤسَّسة دون أخرى، وإنما هو شأنٌ مشتركٌ بين كثير من المؤسَّسات الصَّحفيَّة لا سيَّما في السَّنوات الأولى.

ولقد تخلَّصت (الرِّياض) - فيما بعد - من هذه العقدة تمامًا والحمد لله.

واليوم؛ ونحن عند الرقم الألفي العاشر لصحيفتنا، نجد أنفسنا أمام صحيفة راسخة الخطى، شامخة بكلِّ المقوِّمات؛ بناءٌ حديث يُعدُّ مَعْلَمًا من معالم المدينة، وأجهزة فنيَّة، وطباعيَّة متكاملة، ومكاتب، ومراسلون في شتَّى البقاع، و(أسرة) تحرير كبيرة متظافرة الجهود، نجد أنفسنا أمام صحيفة متميزة في أدائها الإعلامي والثَّقافي، يتطلَّع الجميع إلى صدورها كل صباح.

وليس هذا بغريب عليها، وهي تصدر من بلاد حملت على عاتقها - منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا - رسالة الحق، والنور، والإيمان.

رسالة إلى المسافر..

الصَّيف موسم الإجازات - غالبًا - وقد اعتاد بعض المواطنين في المَملكَة العربيَّة السُّعوديَّة - وفي بقيَّة دول الخليج العربيَّة- أن يقضوا إجازاتهم خارج أوطانهم.

ويسود اعتقاد لدى كثير من النَّاس في الخارج بأنَّ السَّائح القادم من هذه الأقطار سائح جاء إليه المال عفوًا، وأن جيوبه تفيض ذهبًا، وأنَّه ينفق دون وعي، أو تبصُّر، كما يحسبون أنَّ أكثر هؤلاء السياح إنَّما جاؤوا إليهم بحثًا عن متع خاصَّة يفتقدونها في بلادهم، وأنَّ المفهوم السِّياحي الصحيح لا يكاد يخطر على بال أيِّ سائحٍ من هؤلاء.

وبدهي أنَّ هذا الاعتقاد في مجمله لا يخلو من جانب، أو أكثر من جوانب الصَّواب، كما أنَّه في مجمله أيضًا يُعدُّ خطأ وتجنيًّا؛ فهؤلاء السياح في معظمهم هم سوَّاح ينشدون الاستجمام، والتَّسلية البريئة، والاستزادة من المعرفة لأنفسهم وذويهم، وقد هربوا من حرارة القيظ، وأمَّا الباحثون عن الأمور الأخرى، أو الَّذين يحسبون الفوضى هي الحريَّة، فهم القلة الَّتي لا يحسن الحكم على مواطنيها من خلال بعض تصرفاتها الخاطئة، لكن تلك النَّظرة من الآخرين لنا تصادف - مع الأسف - هوى كامنًا في أعماقهم!

فليس كل السُّياح (النِّفطيِّين) - إن جاز التَّعبير - تسيل أكفهم عسجدًا، وبطاقات ائتمان! وليسوا غواة متعة مريبة، أو (باحثين) عن سمعة تسيء إلى أوطانهم، لكن العمل السَّيِّئ وإن كان قليلًا، أو من أفراد معدودين هو الَّذي يشيع بسرعة؛ لكونه

العمل النَّافر، غير المقبول، المثير للانتباه، وأمَّا تحاشي هذا العمل فلا يشيع عادة؛ باعتباره الأمر الَّذي يجب الالتزام به واحترامه.

ومهما تكن الحال، فإنَّ تصرف فئة قليلة منا تصرفًا مشينًا لهو ممَّا يعطي الانطباع لدى أولئك القوم بأنَّنا شعوب متخلِّفة ذهنيًّا، وحضاريًّا، وأنَّنا لا نستحق ما ننعم به من رخاء، أو أنَّنا كالأطفال المدلَّلين الَّذين لا يعرفون كيف يتصرفون بالنقود الَّتي يعطيهم الأهل إيَّاها، فينفقونها ببراءة في توافه الأشياء، لكن الكبار هنا قد لا ينفقونها في التَّوافه فحسب، بل في الأمور المحذورة، وفيما يسيء إلى سمعة أوطانهم، وفيما يدفع غيرهم إلى ازدرائهم!

إنَّك أيها المسافر سفير وطنك، وأهلك، وسفير دينك، وأخلاقك، وتاريخك، وأمجادك، فكن مثلًا حسنًا في ذلك.

وإنَّك أيها المسافر مُلاحق في حركاتك، وسكناتك، وإنَّ لم تشعر، وإنَّ أمتك مستهدفة، وإنَّ الأعداء والحاقدين والحاسدين الَّذين يملؤون جنبات الدُّنيا حريصون أشد الحرص على متابعة أخطاء أمتك من خلال أخطائك أنت؛ فهم وإن كانوا يتحرون الفائدة منك ماديًّا، ويتحايلون على اجتذاب مالك بكلِّ وسيلة وشراهة، إلَّا أنَّهم يُسرُّون بهفواتك، وفي الوقت نفسه يشمئزون منها، بل يحصونها عليك وعلى بلادك إحصاءً دقيقًا، وربما خلقوا من الحبة قبَّة، وقد ينشرونها غسيلًا؛ ليتحدَّثوا - كما يحلو لهم - حديث القدح والتَّحقير، أو ليبتزوا وطنك بها عند الحاجة يومًا ما.

فلتبتعد أيها المسافر عن مواطن الرِّيبة، ومظانّ السُّوء، وإن ابتليت فليكن السِّتر رداءك!

ثم ابتعد عن افتعال المظاهر الَّتي لا تتَّفق والمعقول، وعن لفت الأنظار إليك، لا

تحسبنَّ المال هو خادمك الوحيد، وحذار من التَّظاهر بجاهٍ أو مقام أمام من تتعامل معه، ولا تدع الآخرين يجزمون بأنَّك بدون هذا المال أو الجاه لا تساوي شيئًا!

وحذار من مضايقة الآخرين في منزل، أو فندق، أو مطعم، أو متنزَّه بنظراتك الفضوليَّة، أو بضجيج صغارك، وجلبتهم وعبثهم؛ فإنَّ مراعاة الشعور، والذَّوق، واللَّياقة الأدبيَّة مطلوبة دائمًا، ولا تظن أنَّ ما يجوز لك في بلدك يجوز لك في سواه.

وأخيرًا، كلما كنت بسيطًا في أمورك وتصرفاتك كنتَ مقبولًا في عيون الآخرين، وقلوبهم، وسعدتَ برحلة ممتعة حقًّا.[1]

❁❁❁

(١) نُشرت في مجلَّة «المسافر»، سبتمبر، ١٩٩٥م.

الأنظمة (بين احترامها وابتذالها)

أعطت إشارة المرور ضوءها الأحمر، فوقفت السَّيَّارات أمام الإشارة طائعة مذعنة، كأنَّما هي قد تسمَّرتْ في أمكنتها، إلَّا سيارة واحدة لم تكن تعبأ بالأمر، ولا تكترث بالنِّظام الَّذي أوجب تلك الطاعة، فمرقت كما يمرق السَّهم - في إصرار وتحدٍّ - أمام أبصار النَّاس، فكان ما كان في لحظات خاطفة، وذهل الجميع، وهاج ألمَهُم وحزنهم، وضربت الأكفّ اليُمنى على اليُسرى.

وعلى الرغم من لحظات المرارة والأسى الَّتي شدَّت الجميع، وهما مرارة وأسى يلجمان الأفواه، ويربكان المشاعر، ويعطِّلان التَّفكير طبعًا، بالرغم من كل هذا - وبعد أن هدأت النَّفس قليلًا، وعاد إلى الذهن شيء من صفائه - رحت أتساءل: كيف يغامر عابث بنفسه هكذا؟ وكيف تبلغ به الحال هذا الحدّ من الاستهتار بأرواح سواه من الأبرياء الملتزمين بالنِّظام الَّذي جاء ليمنح السَّلامة والأمان للنَّاس؟!

كانت السَّيَّارات - إلَّا تلك السَّيَّارة - تلتزم بأمر إشارة المرور، وفي داخل هذه السَّيَّارات أناس من شتَّى فئات المجتمع، قد يكون منهم: الأمير، والوزير، والتَّاجر، والموظَّف، والطالب، ومنهم مواطنون آخرون، ومنهم الصِّغار والكبار، ولقد احترم جميعهم نظام السَّير، وامتثلوا له امتثالًا فريدًا، ولا شكَّ أنَّ إدراكهم للخطر الدَّاهم الَّذي سيلحق بهم - لو خالفوا الأمر - كان الباعثَ الأول لهذ الامتثال.

وقلت في نفسي: إنَّ أوامر إشارة المرور لا تختلف في هدفها عن الأوامر والأمور الَّتي توجبها الأنظمة الأخرى، ولكنَّ الشعور - بين النَّاس - بمغبَّة المخالفة وعواقبها

الوخيمة يختلف من نظام لآخر، وقد لا يعي كثيرون خطورة مخالفة نظام من الأنظمة المتصلة بالمصلحة الوطنيَّة الَّتي تُعرِّض مخالفتها المجتمع كله إلى الدمار.

إن النَّاس يستشعرون الخطر المباشر على النَّفس وحدها، كما هي الحال في مخالفة إشارة المرور - مثلًا - ولكنَّهم لا يستشعرون الخطر - عادة - عندما يمسّ الكيان العام لهم مع الأسف!

وهناك - من باب المثال - أنظمة لمكافحة الرَّشوة، والتَّزوير، والتَّهريب، والغش التجاري، والتَّلاعب بالمواصفات والمقاييس، والإفلات من الضَّرائب بالتَّستر، والمتاجرة بالمخدَّرات وتعاطيها، واستغلال النُّفوذ والمركز.

وهي أنظمة في الصميم من حياة النَّاس ومن مصالحهم، وتهدف إلى خلق مجتمع فاضل، ولا نقول (مدينة فاضلة) على النمط الَّذي تخيله الفلاسفة من قديم الزَّمان؛ فقد يكون في هذا شبه استحالة.

فما مدى تقيد النَّاس بهذه الأنظمة وغيرها؟

لا شكَّ أنَّ الأكثرين منهم يلتزمون بها تمام الالتزام - والحمد لله - أو يتعاملون معها بمرونةٍ لا تخل بروحها ولا بأهدافها، وأما الأقلون فهم العابثون بها، المتمرِّدون عليها، وهم يلقون ما يستحقونه من جزاء وعقاب متى ما اكتشف أمرهم.

هؤلاء قد جنوا - بفعائلهم - على المجتمع بِرُمَّته، لم يجنوا على نفرٍ واحد، أو على نفرٍ يسير من النَّاس فحسب، بل هؤلاء قد استغواهم الشيطان، وزيَّن لهم سوء

أعمالهم؛ فخانوا ضمير الأُمَّة، وطعنوا الوطن في وجدانه، وأهدروا القيم والذمم، والأخلاق - والأمم هي الأخلاق - وأنكروا الشَّرع والنِّظام.

وقد يكون (بعض) هؤلاء قد أسهم - بانحرافه - في إيجاد ذلك (الأنموذج البشري المسكين)، الَّذي لم تسعفه حاله - وهو يتخطَّى إشارة السَّير الحمراء - فيدرك أنَّ الأجل له بالمرصاد بعد ثوانٍ من الوقت.

إنَّ الخوف من المصير المجهول المعلوم الَّذي كان - حقًّا - وراء وقوف عشرات السَّيَّارات قُبالة (الإشارة) في طاعة وإذعان، إنَّ هذ الخوف يجب أن يكون ماثلًا دائمًا أمام أولئك الَّذين لا يحترمون الأنظمة بعامَّة؛ فالمصيبة هنا أدهى وأمر.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨١٥٠) - بتاريخ ٢٠/ ٨/ ١٤١٥هـ.

في البطحاء..

في عَصْرُ يوم جمعةٍ فائت، مررت بالبطحاء عابرًا، فاستمالني الحنين، واستهوتني الذِّكرى إلى التَّوقُّف بعض الوقت، والتمشي فيما حولي مرورًا بالمدرسة الأهليَّة (التذكاريَّة)، حيث إنِّني تخرَّجت من الدِّراسة الابتدائيَّة بها عام (١٣٦٩هـ)، إلى شارع المرقب، إذ إنَّها أضيئت أول شمعة في تاريخ الطِّباعة والصَّحافة بالرِّياض، وانتهيت إلى التّجوال في أسواق البطحاء و(قيصريَّاتها)، ومكتباتها، على نحو ما كنَّا نفعل - قبل خمسة وثلاثين عامًا - لا سيَّما عندما يحين موعد وصول البريد من القاهرة، أو بيروت، أو البحرين، حاملًا معه الجرائد والمجلَّات، فنتخاطفها - ونحن شباب تلك الأيَّام - من المكتبات التجاريَّة هناك،

ورحت أتجوَّل في البطحاء - كالغريب - أنظر يمينًا ويسارًا، وأُدقِّق فيما أمامي من أشياء، وأتفحص مَنْ حولي من البشر، لعلِّي أجد شيئًا من ذلك الأمس القريب!

لكنَّ كل شيء قد تبدَّل على ما يبدو؛ فالأسواق اختفت ملامحها الشَّعبيَّة تقريبًا، و(القيصريَّات) هُدمت وقام مكانها غيرها، و(البسطات) حظرتها البلديَّة، أو تغير أسلوبها، والبضائع لم تعد بضائع الأمس، والباعة السُّعوديون قلُّوا كثيرًا، أو هم على وشك التَّلاشي، وإن كانت (المحلات) ما تزال تحمل أسماءهم! وسوق الكتب والصُّحف لم تعد على صورتها الَّتي كانت لها من قبل.

بيد أن أشدَّ ما يلفت نظر الغريب - مثلي - هم النَّاس الَّذين تموج بهم أسواق البطحاء، وجوه وسحنات من شتَّى بلدان آسيا وغيرها، ولغات متباينة من مختلف

الآفاق، وأصوات توحي إليك بفكرة إنشاء مختبر علمي لأبحاث (الصوتيات) وأزياء متنافرة من الملابس تجعل أصحابها في (كرنفال) غير مسبق الترتيب، والكل يذرع هذه الأسواق؛ إمَّا متفرِّجًا على غيره، أو آملًا في لقاء أحدٍ من بني جلدته، أو مبتاعًا حاجته من المتاجر الَّتي تعرض كل شيء تقريبًا.

ولا تكاد تسمع متحدثًا عربيًّا هنا، وقليلًا ما تبصر سعوديًّا إلَّا كما تبصر الشعرة البيضاء في غرة فتى يافع لم يبرح العشرين من سنه.

هل تغيرت الديار أو من عليها؟

وتذكرت قول أبي الطيب المتنبي، وقد مرَّ - في إحدى سفراته - بشِعب (بوَّان) من بلاد فارس:

مغاني الشَّعب طيبًا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزَّمانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجه واليد واللِّسانِ
ملاعب جِنَّةٍ لو سار فيها ... (سليمان) لسار بترجمانِ

وأحسست بالغربة كما أحس بها شاعرنا الكبير، بل زدت عليه بأنَّها غربة في مسقط رأسي، ولو كانت لي حاجة في هذا السوق لاستعنت بترجمان، وقد لا يكفيني واحد: فاللُّغات شتى!

إنَّ سوق البطحاء في الرِّياض مَثَلٌ من أمثلةٍ أخرى في مكة، وجدة، والدمام، ومدن غيرها، مَثَلٌ لأعدادٍ هائلة رهيبة من شتَّى الأجناس تعجُّ بهم بلادنا، ولا بدَّ أنَّ من بينهم من ينطوي وجوده هنا على مخالفات لا نعلمها، وأنَّ بينهم من لا تحتاج

البلاد إليه أصلًا، فضلًا عن الآثار (الاجتماعيَّة، والصحيَّة، والاقتصاديَّة) المترتبة على بقائهم.

ومع أنَّ القفزة الاقتصاديَّة الَّتي عصفت بنا قبل سنوات، والَّتي لم تكن الأذهان ولا الطبائع مهيَّأة لهضمها كما ينبغي، كانت وراء ذلك الكم الكبير من الاستقدام المتوالي من العمالة الأجنبيَّة، سواء في مجال تنفيذ خطط التَّنمية العامَّة، أو في مجال الخدمة الخاصَّة، إلَّا أنَّنا يجب أن نفاتح ذاتنا بالحقيقة أو بعضها، على المجالين العام والخاص، بأنَّنا قد جاوزنا حدَّ الحذر من مغبَّة الاستقدام المسرف؛ فقد كان الحساب غير دقيق حقًّا!

وعلى أيِّ حال، فالأولى بنا أن نطرح النَّدم واللَّوم جانبًا، ولا ننشغل بهما عن التَّفكير والعمل، وأن نلتفت إلى أنفسنا، ونعطي الأمر حقَّه من التَّأمل، والمراجعة، والتَّصحيح، فما زال في الوقت فسحة.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٥٧٨١) - بتاريخ ٢٧/ ٨/ ١٤١٥هـ.

لهذا هُزمنا..

ذكرت بعض التقارير الإعلاميَّة أنَّ عددًا هائلًا من الفلسطينيِّين - يكفُّ القلم عن ذكره هنا خجلًا! - كانوا عملاء لإسرائيل، وجواسيس لها على منظمة التَّحرير الفلسطينيَّة، وعلى رجال المقاومة وأبناء الانتفاضة، وأنَّ دور أولئك العملاء قد خفَّ أخيرًا بعد إبرام اتِّفاقيَّة الحكم الذَّاتي الفلسطيني، إلَّا أنهم بقوا - وسيبقون - مكروهين ومنبوذين من شعبهم، بل عرضة للملاحقة والانتقام، ولهذا عمدت إسرائيل - من باب الوفاء الكاذب - إلى تهيئة بيوت خاصَّة بهم في إحدى ضواحي (تل أبيب)؛ ليكونوا تحت حمايتها؛ وهيأت لهم أسباب العيش، ولربما استخدمتهم في مهمات قادمة، وليس هؤلاء في مأمنٍ أيضًا من سخط اليهود أنفسهم، فإنَّ مجاوريهم من سكَّان الحي يكنُّون لهم الحقد والاحتقار، ويلومون الحكومة على رعايتهم، ذلك موجز ما جاء في التقارير الإعلاميَّة،

والواقع أنَّ مثل هذه الحال الَّتي يعيشها منبوذون كهؤلاء هي نتيجة طبيعيَّة حتميَّة للخيانة الَّتي انغمسوا فيها ردحًا من الزَّمن!

على أنَّ وجود شواذ من أبناء الأُمَّة - أيّ أُمَّة - يعملون لحساب العدو، ويتجسَّسون على بني جلدتهم، وهذا ليس بغريب في تاريخ الشعوب والحروب، كما أنَّه ليس وليد اليوم، بل هو أمر معروف منذ قديم، وقد شهدت الحربان العالميتان شيئًا كثيرًا من هذا.

إلَّا أنَّ الغريب، والمذهل، والمخزي في آنٍ واحد، هو أنَّ ذلكم العدد الهائل الرَّهيب من (العملاء، والخونة) الَّذي ورد في غضون تلك التَّقارير!

وقد تكون الفاقة، والبأساء، وشيوع اليأس، والقنوط من قرب الفرج، والتَّأثير النَّفسي والمعنوي من قبل العدو عليهم، من الأسباب الَّتي دفعت بفئات من ضعاف الإيمان والقلوب إلى الإقدام على ما أقدمت عليه والتَّعامل مع المحتلين، والتجسُّس لصالحهم، لكن كيف ينحسر الوازع الوطني عن هذا الحشد المفزع الكبير، ويبيعون أنفسهم وأمتهم لمن اغتصب أرضهم، وشرَّد أهليهم لاجئين في الآفاق، وامتهن مقدَّساتهم، وأهان كراماتهم؟! وأين هؤلاء من دماء عشرات الألوف من الفدائيين والمناضلين؟!

إنَّ هذا الحشد من العملاء جيشٌ من الدَّاخل، وليسوا مجرد طابور خامس؛ جيش ينهك الأعصاب، والقوى، والإمكانيات، ويقدم النصر سهلًا سريعًا للعدو مقابل ثمن بخس!

وقد يكون ذلك مبالغًا فيه!

كماقد يكون العدو - إعلامه الذكي الخبيث - قد ضخَّم العدد وأعطى للأمر مقدارًا وحجمًا غير حقيقيين، وسرَّب ذلك إلى أجهزة الإعلام العالميَّة، ومنها إلى الإعلام العربي المستكين؛ بقصدَ الإساءة إلى سمعة العربي عامة، والفلسطيني خاصة، ولبذر الشُّكوك وزرع الإحن، والأحقاد بين الشَّعب الواحد إلى ما شاء الله.

وتلك (شنشنة) عرفناها من (أخزم) على مدى خمسين عامًا أو أكثر! لكن إن

صحَّ الخبر، وتفاصيله، وصحَّ أنَّ العملاء هم بهذا القدر فعلًا، فلا يسعنا إلَّا أن نقول في حسرة ومرارة: لهذا هُزمنا أمام أعدائنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل!

هذا وقد يسأل سائل: هل ستجري محاكمة هؤلاء من بني قومهم؟ وهل سيلقون عقابًا خاصَّة وإنَّ إسرائيل قد احتضنتهم في حماها إن كان لها حمى أصلاً؟! ولعلَّ أقرب الظن أنَّ العمر سينتهي بهم دون أن ينالهم عقاب دنيوي، غير أنه ليس أقل على الفلسطينيين بالذَّات من أن يعلنوا أسماء المنحرفين في سجل للعار مكتوب، يُنشر ويوزَّع؛ ليقرأه كل طفلٍ وشاب، وليبقى جزءًا من تأريخ القضيَّة الجريح، وليظل كل من باع (شعبه، ووطنه وعروبته، ودينه) ماثلًا أمام محكمة التَّاريخ جيلًا بعد جيل.

وما أمر (أبي دغالٍ) عنَّا ببعيد! ذلك الخائن القديم الَّذي يقبح ذكره خزيًا، ويندى به تاريخ قومه خجلًا على مدى نحو ألف وخمسمائة عام![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨٠٢٤) - بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٤١٥هـ.

الحَـجَّاج ليس كذلك..

قـال أحـد كُتَّابنـا الأفاضـل فـي مقالـة لـه بإحـدى صحفنـا: «إنَّ التَّاريـخ العربي لم يعـرف فظاعـةً، وطغيانًـا، ووحشـيَّة من جبَّـار العراق فـي القديـم: الحَجَّاج بن يوسـف الثقفـي، وجبَّـار العـراق فـي العصر الحديـث: صدَّام حسـين».

وقد صُدِمتُ لهذه المقارنة! فكيف يكون الحجَّاج بن يوسف كصدَّام حسين؟!

وأحسـب أنَّ الكاتـب الكريـم قـد قـال ذلك في غمرة حسـرته، وحماسـته لشـعب العـراق، وهـو يعانـي - على مدى نحو خمس سـنوات - مـن ضائقة نفسـيَّةٍ واقتصاديَّةٍ، ومـن عسـفٍ، وجـور، وظلـمٍ، ومـن عزلـةٍ كئيبـةٍ رهيبـةٍ تحيط بـه؛ كونهـا نتيجـةً طبعيَّة لعـدوانٍ غاشـمٍ علـى جارٍ صغيـر مسـالم (الكويت).

وعلى أيَّة حال؛ فالحجاج بن يوسف ليس كذلك.

إنَّ الحجَّـاج بن يوسـف كان في نظر التَّاريخ المنصف أنموذجًـا رجوليًّا، إن لم يكن أسـطوريًا لأمَّةٍ حملت على عاتقها نشـر لواء الإسلام في شـتَّى بقاع المعمورة، ولم يكن الحَجَّاج خليفةً، ولا حاكمًا أعلى، بل كان واليًا على أحد أقاليم الدَّولة العربيَّة الإسـلاميَّة فـي زمنـه، وقـد كان يوطِّـد حكم هـذه الدَّولة الَّتـي أحاطت بهـا الأخطار مـن كل جهة، وذلـك سـواء من قبـل دولة الـرُّوم في الشَّـمال، أو مـن الطَّامحين إلى الحكـم في بعض الأقاليـم، أو من الخـوارج وبعض الفِرَق الأخرى، أو مـن المتمرِّدين العصاة الآخرين.

وقد رمى الخليفة الأموي بالحَجَّاج في نحور هؤلاء، فأعاد إلى الدَّولة هيبتها، واستقرارها، وأتاح لها الفرصة لتستأنف مسيرة الفتح، والجهاد في كل صوب.

كما هيَّأ الحَجَّاج للدَّولة أسباب المجد؛ ليمتدَّ الحكمُ الإسلاميُّ في ظلِّها إلى أكبر رقعة ممكنة فوق وجه الأرض، فبعد القضاء على الثورات والفتن الَّتي شغلت المسلمين حينًا، هيَّأ الحَجَّاج أسباب الفتح في المشرق، وجيَّش الجيوش تلو الجيوش، واختار لها القادة من صفوة الرِّجال، أمثال: المهلَّب بن أبي صفرة وأبناءه، وقتيبة بن مسلم، ومُحَمَّد بن القاسم، ووجَّههم بوحي فطرته، ودهائه، وبعد نظره - بعد أن استأذن الخليفة - إلى فتح ما تبقَّى من بلاد فارس، وخراسان، وإلى فتح السند، والهند، وبخارى، وأواسط آسيا، وغرب الصين، فتمَّ له ذلك في غضون فترة وجيزة من الزَّمن، فانتشر الإسلام في تلك الربوع سريعًا، ورفرف علم إمبراطوريَّة إسلاميَّة عظمى فوق تلك الأصقاع.

فالحَجَّاج بن يوسف بلا جدال، أو مراء، هو أحد قادة التَّاريخ وصانعيه.

على أنَّ هذا لا يحملنا على نفي ما حدث منه من بعض الأمور؛ إذ إنّه لا يمكن تجاهل أخطائه - وبعضها كبير - لكنَّها تهون أمام ما قدَّم لأُمَّته ودولته، ولولا حزمه وشدته لاتجه مسار التَّاريخ العربي والإسلامي اتجاهًا آخر.

ثمَّ إنَّنا لا ننسى أنَّه بشر، معرَّض للصوَّاب والخطأ، وأمثاله كثيرون في تاريخنا، ولكن الجوانب الإيجابيَّة إذا رجحت بالجوانب المضادة الأخرى تستوجب المسامحة.

فالحَجاج - في سيرته الخاصَّة - كان نزيهَ العِرض، عفيفَ الذَّيل، مترفِّعًا عن الدَّنايا، لم يعبث بحقِّ الدَّولة، ولم يؤثر عنه أنه حابى أحدًا من ذوي عصبيَّته، كما

أنـه كان مثـالًا للجنـدي المخلص - أو المحتـرف بتعبير اليوم - الَّـذي لم يخدش ولاءه لقيادتـه يومًا.

وكثيـر ممَّـا رُوي عـن الحَجَّاج في مجـال القدح هو مـن صنيع خصومـه، وخصوم الأمويـيـن، ومـن صنيـع ذوي المِلـل والنِّحل الَّذين شـقُّوا عصـا الطاعة، بـل ومن صنيع الشُّـعوبيَّة الفارسـيَّة في أكثر الأحوال.

ألا ما أحوج المسلمين اليوم إلى ألف حَجَّاج، وحَجَّاج!![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨٠٩٤) - بتاريخ ٢٣/ ٦/ ١٤١٥هـ.

ورحل حمد الجاسر!

نعم، رحل شيخنا ومعلّمنا حمد الجاسر..

رحل أستاذنا الَّذي علَّمنا صناعة الحرف والكلمة!

فماذا عسى تلميذ - وقد أذهله الخبر - أن يكتب عن أستاذه؟!

وأنَّى لقلم كسيرٍ موجَعٍ أن يتحدَّث عن علاقة يبلغ مداها نحوًا من خمسين عامًا، أي: منذ أن كان التلميذ طالبًا في معهد الرِّياض العلمي عام ١٣٧١هـ؟!

كان (الأستاذ) يومها مساعدًا لمدير المعهد الشَّيخ/ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشَّيخ - رَحِمَهُ اللهُ - وكان - أي الأستاذ/ حمد - يعطي في الوقت نفسه دروسًا في الأدب والتَّاريخ لبعض صفوف المعهد، التي شدَّت الطُّلاب إلى أستاذهم، وغرست فيهم حبَّ القراءة والاطِّلاع، والبحث، والمعرفة، والكتابة.

أجل، إنَّ القلم يقفُ حائرًا، بل عاجزًا عن التَّعبير عمَّا يجيش في النَّفس، وإنَّ الخاطر يبدو مذهولًا ومشدوهًا من هول الصَّدمة بوفاة الأستاذ، أستاذ الجيل حقًّا، علَّامة الجزيرة العربيَّة في فنون التَّاريخ والأدب، والبلدانيَّات، والأنساب، وفي تحقيق التُّراث، وذو الفضل الجمِّ في إبراز كثيرٍ من صور الماضي الثَّقافي العربي، وجلائه من تحت أسدال الإهمال والنِّسيان، ومن بين زوايا مكتبات العالم، والمخطوطات المتناثرة في شتَّى بقاع الدُّنيا؛ فأصبح كثيرٌ من المجهول معلومًا، والمطمور مكشوفًا، وصار للجهد والعناء ثمرًا يانعًا يقطف منه كل دارس وباحث، وذلك ليس في بلادنا فحسب، بل في كلِّ أقطار العروبة.

ومضى الزَّمن بهذه العلاقة؛ ليعمل التلميذ مع أستاذه في شركة الطِّباعة والنَّشر الوطنيَّة (مطابع الرِّياض) منذ يوم إنشائها، وهي المطابع الَّتي سعى الأستاذ لتكوينها في أوائل السَّبعينات من القرن الهجري الماضي، وأسهم معه في إنشائها عدد من العلماء، والوجهاء، والمثقَّفين، والطلاب؛ فكانت أول مطابع تقوم في الرِّياض، وكان لها الدور الرائد في خدمة العلم والثَّقافة، والصَّحافة، والتُّراث؛ حيث عديدًا من الكتب التُّراثيَّة، والمؤلفات الحديثة طُبِعت لأبناء هذه البلاد، ولبعض الإخوة العرب، كما أنَّها طَبَعت (صحيفة اليمامة) في عهديها الفردي والمؤسسي، وذلك على مدى عشرين عامًا تقريبًا، وبالإضافة إلى جرائد: (القصيم)، و(الدَّعوة)، و(الجزيرة)، وعددٍ من المجلَّات الأخرى، إلى جانب المطبوعات الحكوميَّة والتجاريَّة.

وقد أصدر الأستاذ الجاسر مجلَّة (اليمامة الشَّهريَّة) في أواخر عام (١٣٧٣هـ)، أي: قبل مباشرة مطابع الرِّياض عملها الفعلي بنحو عامين، فكان يطبع المجلَّة أولًا في مصر، فمكة، فبيروت، ثمَّ حوَّلها في عام (١٣٧٥هـ) إلى جريدة أسبوعيَّة تطبع في الرِّياض بعد أن قامت المطابع على قدميها.

ولقد بدأ التلميذ، هو ورصفاؤه المبتدئون كتابة محاولاتهم الأولى مع المجلَّة منذ سنتها الأولى، مدعومين بتشجيع الأستاذ ورعايته لهم؛ حيث إن التلميذ نشر حينها سلسلة من المقالات عن: (أعلام الشِّعر اليمامي)، وكان لدعم الأستاذ الأدبي الفضل في هذا التَّوجيه الأدبي المبكر، وذلك هو شأن الأستاذ دائمًا مع جميع مريديه من شُداة الأدب الَّذين كانت (اليمامة) مدرستهم الصَّحفيَّة الأولى.

وتمضي الأيَّام بهذه العلاقة الأدبيَّة؛ ليحظى التلميذ بثقة أستاذه، فيكل إليه مسؤوليَّة الإشراف على إدارة الجريدة وتحريرها أثناء تغيبه خارج الرِّياض، وعلى فترات متعدِّدة،

وعلى الرغم من أنَّ تلك الفترات حملت في طيَّاتها شيئًا من المعاناة نتيجة لبعض الزوابع الَّتي هي فوق طاقة التلميذ، إلَّا أنَّها تظل تحمل كثيرًا من الذكريات البهيجة دائمًا؛ فهذا هو شأن الصَّحافة والصَّحفيين على أيَّة حال!!

لقد كانت (اليمامة) - آنذاك - مشعلًا متوقِّدًا من مشاعل الفكر في بلادنا، لا سيَّما في المنطقة الوسطى من البلاد؛ والفضل في ذلك يعود لما يتمتَّع به صاحبها من إخلاص لمهنته، وعلمه، وفكره، وكانت حفيَّة بطرح قضايا السَّاعة الوطنيَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة، كما كانت ذات آراء متميزة تستمدها بالدرجة الأولى - كما قلنا - من مكانة صاحبها، ومن علمه، وأدبه، وقوة عارضته.

ولقد عنيت اليمامة، بوجهٍ خاص، وفي وقت مبكر جدًّا، بأمور البادية باعتبارها أحد عنصري المجتمع، وقدأكَّدت ضرورة توطينها، وإنعاشها، وتعليمها، حتَّى لا يكاد يخلو عدد من التَّحدُّث عن شأن من شؤونها، بل خصَّصت العدد الثَّاني عشر من السنة الأولى الصَّادر في ذي القعدة عام (١٣٧٣هـ) للبادية، وكان شعار ذلك العدد: وصيَّة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للخليفة من بعده: «... وأوصيك بالبادية، فإنَّهم أصل العرب، ومادَّة الإسلام... »، وقد لقيت هذه الدَّعوة الصدى الطيِّب المأمول من أولياء الأمر في هذه البلاد، وإنَّ واقع الحال اليوم يشهد بهذا.

وقد أسهم عدد من ذوي الأقلام النيِّرة بالكتابة في (اليمامة)، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: سعيد عبد الله الكردي، علي حسن فدعق، عبد الرزاق الريِّس، عبد الله بن خميس، إبراهيم الهاجري، مُحَمَّد سعيد با غفار، سعد البواردي، عبد الكريم الجهيمان، إبراهيم الحجي، عبد المحسن التويجري، عبد الله بن مُحَمَّد الحميد، علي العبداني، رحم الله من توفي منهم، ومتَّع الآخرين بالصِّحة والعافية.

وفوق ما أسهمت به (اليمامة) - المجلَّة ثم الجريدة - في حقبة السَّبعينيات من وعي، ورأي، وفكر، وبما كانت تنشره على صفحاتها، فإنَّ مقرها في شارع المرقب كان منتدى حيًّا لكثيرٍ من الطلاب، والمثقَّفين، والأدباء السُّعوديين، وملتقى لعديدٍ من الوافدين العرب إلى الرِّياض من كُتَّاب وصحفيِّين.

حقًّا، لقد كان الشَّيخ/ حمد - بلا مراء - رائدًا من روَّاد الحركة الصَّحفيَّة، وقد تخرَّج في مدرسته عدد من أبناء المهنة في مدينة الرِّياض، وجيلنا يقرُّ له بهذا الجميل، ويدين له بالمعروف، ونحن نعدُّه معلِّمنا الأوَّل في هذا المجال، بل نحسبه الَّذي علَّمنا صناعة الحرف والكلمة، والَّذي حبَّب إلينا مصاحبة اليراعة والقرطاس، وغرس في دخائلنا عشق الأدب، والتُّراث، والثَّقافتين: العربيَّة، والإسلاميَّة.

وقد أودع في نفوس تلاميذه حبَّ الصِّدق في القول، والصَّراحة في التَّعبير، والاعتدال في الرَّأي، وعدم التَّعصب الأعمى لرأي دون آخر من غير علمٍ، أو بينة، وتجنُّب الإسراف في المدح؛ لئلا ينقلب قدحًا.

هذا، وعقب صدور نظم المؤسَّسات الصَّحفيَّة الأهليَّة عام (١٣٨٣هـ) بادر الشَّيخ/ حمد إلى طلب إنشاء مؤسَّسة صحفيَّة تحمل اسم: (مؤسَّسة اليمامة الصَّحفيَّة)؛ لتصدر صحيفة يوميَّة باسم: (الرِّياض)، وهو الاسم الَّذي عاش في وجدانه، وكان يتطلَّع إليه منذ أمدٍ بعيد، وأخرى أسبوعيَّة تحمل اسم: (اليمامة)، الاسم الَّذي عاش معه - من قبل - نحوًا من عشر سنوات، وقد اختار بنفسه ثلاثين شخصًا؛ ليسهموا معه في تكوين المشروع الجديد، وتقدم بالقائمة المختارة مرفق طلب التَّأسيس؛ حيث أن القائمة حظيت بموافقة الملك فيصل - رَحِمَهُ اللهُ - وباشرت المؤسَّسة مهامّها أوَّلًا بإصدار مجلَّتها الأسبوعيَّة، وقد اختارته الجمعيَّة العموميَّة للمؤسَّسة

رئيسًا للتحرير، ثمَّ أصدرت المؤسَّسة (الرِّياض) في مستهلِّ عام (١٣٨٥هـ) ليشرف عليها لمدة شهرين ريثما يتمّ اختيار رئيس للتَّحرير من بين المؤسِّسين.

ومن ثمَّ ارتأى الشَّيخ أن ينأى عن مسؤوليَّة الصَّحافة اليوميَّة والأسبوعيَّة، وأن يتفرغ تمامًا لمجال البحث والتَّحقيق؛ فكان أن أصدر مجلَّة (العرب) الشهريَّة، موجِّهًا عنايته من خلالها إلى خدمة تراث هذه البلاد بخاصَّة، وإلى خدمة الثَّقافة العربيَّة بعامَّة، فكانت هذه المجلَّة محطَّ أنظار الدَّارسين، والباحثين، والمحقِّقين من شتَّى أقطار العالم العربي.

وقد حقَّق بها ما يتواءم مع منحاه العلمي، وأصبحت المجلَّة بحق معلمًا من معالم حياتنا العلميَّة، وقد نشر بها القسط الأكبر من مراجعاته، وتحقيقاته، وبحوثه في الأدب، واللُّغة، والتَّاريخ، والأنساب، والبلدانيَّات، وجانبًا من رحلاته وانطباعاته، وكان في كل ذلك شيخ البحث، وعمدة التَّحقيق، ومرجع القاصدين، كما أصبحت (العرب) خير سفيرٍ لثقافة هذه البلاد، وأصدق عنوان للثقافة العربيَّة الجادَّة.

ولعلَّ الله أن يهيِّئ لهذه لمجلَّة من المختصِّين من يأخذ بيدها بعد رحيل صاحبها؛ لتواصل سيره على النَّهج نفسه الَّذي اختطه لها مؤسِّسها، وإنَّ من مريدي الشَّيخ/ حمد وأصدقائه وأحبائه لكثيرًا من المهتمين بهذا النَّهج، أمثال الدَّكاترة: عبد الله العثيمين، وعبد الله الوهيبي، وعبد العزيز المانع، وعبد الرَّحمن العثيمين، وأحمد الضبيب،

ولقد عرف عن الشَّيخ/ حمد صبره الَّذي لا ينفد، وجلَده المتناهي حين القراءة، والبحث، والتَّدوين لا يكاد يتسلَّل إليه ملل، أو كلل، وقد ظلَّ الكتاب والقلم خدينيه على مدى عمره الطويل، حتَّى في أشد حالاته المرضية، وفي سنوات شيخوخته الأخيرة، علمًا بأنَّه ما فتئ يشكو من عينيه منذ أكثر من خمسين عامًا.

وكأنَّه بهذا قد نذر نفسه وذهنه وعمره لخدمة تراث الأُمَّة وتاريخها، ويكفي أن نقول: إنَّ هوايته الأولى - إن جاز التَّعبير - كانت تتبع المخطوطات العربيَّة في مظانها المبثوثة في شتَّى أصقاع الأرض؛ فلم يدع مكتبة، أو معهدًا، أو جامعة - في الشَّرق أو الغرب - تحوي شيئًا من ذلك إلَّا طرق أبوابها مرارًا، وإنَّك لتعجب من أناته، وسعة باله، وعدم سأمه، وهو منهمك في قراءة تلك المخطوطة بما في خطوطها القديمة من صعوبة وتعقيد - أحيانًا - ثمَّ في مقابلة المخطوطة بنظيراتها الموجودة في أماكن أخرى من العالم بعد أن يكون قد صورها، أو نسخها، أو استنسخها؛ وذلك بغية الوصول إلى النَّص السليم والنُّسخة المعتمدة.

ومنذ سنّ مبكرة كان شغفه الأكثر بعلم البلدانيَّات؛ فقد أعطاه وقتًا وجهدًا كبيرين، فبرز في هذا الجانب بروزًا خاصًّا متميزًا، وفتح السبيل لكثير من الباحثين السُّعوديين الَّذين اقتفوا أثره، وساروا على خطاه في هذا المجال؛ فأسهموا في تأليف المعاجم الجغرافيَّة لمختلف مناطق البلاد، ممَّا كوَّن مشروعًا جغرافيًّا متكاملًا.

وقد عُني شيخنا بتصحيح كثيرٍ من أسماء الأعلام، والمواقع الأثريَّة، والتَّاريخيَّة الواردة في: الأشعار، وكتب الأخبار، والسِّيَر، وحدَّد هذه المواقع تحديدًا علميًّا دقيقًا، وأزال ما لحقها من تصحيفٍ وتحريفٍ، وخلف بحوثًا موسعة عن بعض المعالم كسوق عكاظ، وطريق الهجرة، ودروب الحج، ومناجم التَّعدين العربيَّة القديمة.

وكنتيجة لهذا، دخل الشَّيخ/ حمد في جملةٍ من: (المعارك العلميَّة، والمساجلات النَّقديَّة) مع عددٍ من المؤلفين، والباحثين، أمثال: الشَّيخ/ مُحَمَّد بن بليهد - رَحِمَهُ اللهُ - صاحب كتاب: (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار) الَّذي صدرت طبعته الأولى عام (١٣٧٠هـ)، وقد استمرَّ العراك بينهما عدَّة أشهر على صفحات

جريدة (البلاد السُّعوديَّة)، فأيقظت هذه المعركة روح البحث العلمي، وألهبت جذوة النقاش لدى عددٍ من شُداة البحث في ذلك الزَّمن، وكانوا يتلقَّفون أعداد الجريدة بكلِّ تطلُّعٍ، ونهمٍ، وحماسةٍ.

ومن المساجلات العلميَّة الأخرى الَّتي خاضها شيخنا مع كبار أدبائنا وباحثينا؛ تلك المساجلة الشهيرة الَّتي جرت عام (١٣٨٦هـ) بينه وبين الأستاذ/ عبد القدُّوس الأنصاري - رَحِمَهُ اللهُ - حول: (ضم جيم جدة)، ومع أنَّ الموضوع يبدو كأنَّه لا يحتمل كل تلك المناقشات الَّتي امتدت أسابيع طويلة، أو أنَّه يبدو في نظر بعض النَّاقدين أشبه بمعركة من غير رايةٍ، إلَّا أنَّ الباحثين في صراعهما قد أثريا هذا الموضوع ثراءً ينمُّ عن ترفٍ علميٍّ فذٍّ، لا يقدر عليه سوى الرَّاسخين في العلم من ذوي الاختصاص، وعندما توفي الأستاذ/ الأنصاري رثاهُ الأستاذ/ حمد في جريدة (الجزيرة) بكلمة تأبينيَّة مؤثرة، معدِّدًا فيها بعض خصاله، ومشيرًا إلى بعض ذكرياته معه؛ فلم يفسد اختلاف الرَّأي للودِّ قضيَّة!، وقد عُرِف عن الشَّيخ/ حمد مقاومته الصَّارمة للعابثين بتراث الأُمَّة من أدعياء البحث والاختصاص، المتطلعين إلى الشهرة الرَّخيصة عن طريق التَّطفل على مائدة العلم والمعرفة، وكان ذا غيرة كبرى على اللُّغة العربيَّة وعلومها؛ تزعجه الكلمة الدَّخيلة، ويقلقه اللَّحن، وينفر من فساد العبارة، وعوج الأسلوب، وهو يرى - ومعه الحق - أنَّ اللُّغة العربيَّة صالحة لكلِّ زمنٍ، ولكلِّ فنٍّ، وأنَّها غنيَّة بذاتها، وتتَّسع لشتَّى المصطلحات الحضاريَّة المعاصرة، مثلما كانت متسعة من قبل للحضارات السَّابقة الَّتي امتزجت بالحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، فهي وعاء جميل وصالح لاستيعاب أي مصطلح، سواء عن طريق ترجمة المصطلح إلى ما يقابله في العربيَّة، أو عن طريق تعريب اللفظ، وإخضاعه إلى الذوق العربي، والصيغ اللغويَّة العربيَّة، كما هو الشَّأن مع ما حدث في العصر العباسي - مثلا - عندما نقلت

علـوم الفرس، واليونـان، والبيزنطيين وغيرهم إلى لغتنا بيسرٍ وسـهولة، فهضمها الفكر العربـي دون عناء.

وإذا كان هنـاك مـن عيـب أو عجـز يمتـدُّ إلى لغتنـا في العصـر الحديـث فإنَّه يكمن فـي أبنـاء الأُمَّـة أنفسـهم العازفيـن عن هـذه اللُّغـة؛ لجهلهـم بها، ومـن ثُمَّ اسـتخفافهم بهـا وبقدراتها.

ومـع أنَّـه عضـو أصيل فـي عدد مـن المجامـع العلميَّـة واللغويَّـة، إلَّا أنَّـه كان يتألَّم ويأسـف لتراخـي هذه المجامـع في أداء رسـائلها بالصُّـورة المتوخَّاة، ويـرى أنَّ بعضها قـد ابتلـي مؤخَّرًا بفئة مـن الأعضاء الذين ليسـت لهم درايـة من سـبقوهم، ولا بعلمهم، وحماسـتهم، وغيرتهم على اللُّغة، الأمر الَّذي أضعف مسـيرة التَّوجُّه إلى تعريب التَّعليم في العالم العربي، لا سيَّما التَّعليم العالي فضلًا عن خمود روح الحماسة الَّتي كان يبديها المسـؤولون عـن التَّعليم في الوطن العربـي لقرارات المجامع، ونـداءات المخلصين.

وفـي مجال اهتمامه باللُّغة أيضًا، كان يحرص على تصحيح بعض الأخطاء الشَّـائعة منـذ وقـتٍ قديم، وذلـك في كتابهِ بعض الكلمات ورسـمها؛ فهو - على سـبيل المثال - يـرى أن تكتـب الكلمـة كما تنطق، مثـل: هاذان، هاؤلاء، ياسـين، مئـة... الخ، ويحرص علـى اسـتخدام علامـات التَّرقيـم بـكلِّ دقـة، وإن كانـت غيـر معروفـة لأسـلافنا، وإنَّها انتقلـت إلينـا مـن اللُّغـات الأوربيَّـة الحديثـة، إلا أنَّه يرى فـي اسـتعمالها تيسـيرًا وعونًا للقـارئ العربي علـى فهم مقاصد الأسـاليب.

والشَّـيخ/ حمـد ذو فكر موسـوعي فـي كثير من آفـاق المعرفة، خاصَّة آفـاق الثَّقافة العربيَّـة والإسـلاميَّة؛ فهـو باقعـة زمانـه فـي هـذا الجانـب، وقـد عاش حيـاة علميَّـة ثرَّة غزيرة، يشـهد بهذا ذلك الحشـد الحاشـد من الإنتاج المتدفِّق من المقالات، والأبحاث،

والمؤلفات في: الشِّعر، والأدب، والتَّاريخ، واللُّغة، والأنساب، والرحلات، والبلدانيَّات، والتراجم، وأصول الخيل، وتحقيق التُّراث، ومراجعة ما يُهدى إليه من الكتب الحديثة.

وقد ساعد الشَّيخ في مجال بحوثه ودراساته أنَّه ذو ذاكرة حادّة تختزن في داخلها ما مرَّ بصاحبها طيلة حياته من: المسائل، والشواهد، والأخبار، والنَّوادر، والشوارد، وإنَّك لتعجب له وتذهل - وقد جاوز التِّسعين - وهو يتحدَّث عن الموضوع بكلِّ تفاصيله ودقائقه، كما تعجب له وهو يسوق لك من الحافظة أقوال من سبقه من الباحثين والمؤلِّفين في عصور سالفة، ويتحدَّث عن ذكرياته الشَّخصيَّة مع شيوخه، وزملائه، وتلامذته، ومع شخصيات من المجتمع، ولا تخونه هذه الحافظة عند تحديد الواقعة بالسنة، بل بالشهر واليوم، وكأنما الأمر قد حدث اللَّيلة البارحة!

وفي السَّنوات الخمس عشرة الأخيرة اتَّخذ له مجلَّسًا علميًّا، صباح كلِّ يوم خميس، بمنزل (دارة العرب) في حي الورود، في الشَّارع المسمَّى باسمه، فكان هذا (المجلَّس، أو المنتدى) مقصدًا الكثيرين من نُشَّاد المعرفة، ورجالات الثَّقافة، والأدباء والكُتَّاب، وبعض أساتذة الجامعات.

ولم يخرج النقاش في هذا الملتقى عن نطاق الدَّرس والبحث في مسائل المعرفة، حتَّى يخيل لحاضريه أنَّهم في قاعة المذاكرة، والتلقي، والتحصيل، وليسوا في زيارة تقدير ومودة فحسب.

كذلك ظلَّت (دارة العرب) ملتقى لكثير من أعضاء الوفود الَّتي تُدعى لحضور بعض المناسبات، والمهرجانات، والندوات، والمؤتمرات الثَّقافيَّة الَّتي تقام في الرِّياض من حينٍ لآخر؛ حيث إنَّه اعتاد أن يدعوهم إلى حفلٍ خاص يقيمه لهم، فيجمعهم بأكبر عددٍ ممكن من مثقَّفي هذه البلاد.

وبعد، فإذا عدنا إلى سيرة الشَّيخ الذَّاتيَّة نرى أنَّه قد وُلِد في بيئةٍ نجديَّةٍ، فقيرة الحال، والمال، والعلم، بيد أنَّ طموحه سما به في طلب العلم في حلقاته لدى بعض المشايخ في الرِّياض، ثمَّ في بعض المدارس النِّظاميَّة المتاحة آنذاك في الحجاز، ثمَّ أُتيح له أن يلتحق بكليَّة الآداب بالجامعة المصريَّة (جامعة القاهرة اليوم)، ولكن ظروف الحياة والحرب العالميَّة الثَّانية اضطرَّته إلى العودة إلى المملكة.

وقد مارس في بداية حياته العمليَّة القضاء والتَّدريس، وعمل حينًا في الإدارة التربويَّة مشرفًا على التَّعليم في بعض المناطق، وأسهم في افتتاح عدد من المدارس في الرِّياض وما حولها، وفي سدير، والوشم، وجنوب نجد، وكانت نهاية مطافه الوظيفي التربوي مديرًا لكليتي الشريعة واللُّغة العربيَّة (النَّواة الأولى لجامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلاميَّة) عام (١٣٧٥هـ)، ثمَّ انصرف بكلِّ طاقته - بعد أن تحلَّل من أعباء العمل الوظيفي - إلى الطِّباعة، والصَّحافة، والبحث، والتَّأليف، بالإضافة إلى عضويَّته في المجامع العلميَّة واللُّغويَّة في: (دمشق، والقاهرة، وبغداد، وعمان).

وقد خلَّف وراءه - كما ذكرنا - مئات المقالات، والبحوث، وعشرات المؤلفات، وهي جميعًا شواهد حيَّة وناطقة بجهده وعلمه، وفضله، وستظلُّ - حقًّا - مصدرًا كريمًا، ومرجعًا وثيقًا لكل باحثٍ ومستزيدٍ ومدعاةً للفخر والاعتزاز بهذه البلاد المنجبة الكريمة.

وقد قدَّرته الدَّولة - وفَّقها اللهُ - عندما منحته جائزتها التقديريَّة في الأدب عام (١٤٠٤هـ) في حفلٍ أقيم برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك/ فهد بن عبد العزيز - رحمه اللهُ -، وذلك لإسهامه وعطائه الزاخر المتميِّز في إثراء الفكر والأدب، كما منحته جامعة الملك سعود سنة (١٤١٦هـ) درجة الدكتوراه الفخريَّة؛ تقديرًا لجهوده

البحثيَّة والعلميَّة، ولما قدَّمه من عطاء جمّ متواصل للمكتبة العربيَّة، والسَّاحة الثَّقافيَّة، وقد نال في العام نفسه جائزة الملك فيصل العالميَّة وذلك في مجالي: (أدب الرحلات، والتُّراث العربي تحقيقًا ودراسة)، بالإضافة إلى جائزة الكويت للتَّقدُّم العلمي، وجائزة سلطان العويس الأدبيَّة في مجال الإنجاز الثَّقافي والعلمي.

وكانت خاتمة مؤلَّفاته كتابه عن: (البرود)، وهي القرية الَّتي وُلد بها في إقليم السر، وكأنَّه بهذه الخاتمة ينعى نفسه!

رَحِمَهُ اللهُ بواسع رحمته، وغفر له![1]

❁❁❁

(١) نشرت بمجلة اليمامة - العدد (١٦٢٤) - بتَّاريخ: ٢٥/ ٦/ ١٤٢١هـ، ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٠م.

حول اليمامة

كما نعلم جميعًا إنَّ اسم (اليمامة) يطلق على ذلك الإقليم الأوسط من جزيرة العرب، والَّذي لم تكن حدوده محلَّ اتفاق بين المؤرخين والبلدانيين العرب القدماء؛ فهم لم يحددوا أطرافه تحديدًا واضحًا ودقيقًا! وشأنهم معه كشأنهم مع الأقاليم الأخرى من الجزيرة العربيَّة؛ فمنهم من يعدُّ (نجدًا) من ضمن اليمامة، ومنهم من يجعل (اليمامة) معدودة من (نجد)، وآخرون يجعلون من (اليمامة)، و(البحرين) - أي الجزء الشَّرقي من الجزيرة - إقليمًا واحدًا اسمه (العروض)، وبعض آخر توسَّع في التعريف؛ فألحق باليمامة أجزاء أخرى من: (اليمن، والعراق، والحجاز)؛ ولعلَّ كل ذلك ناجم عن المتغيرات السِّياسيَّة الَّتي مرت بالجزيرة عبر عددٍ من الأزمنة والدُّول.

وكثرٌ من الباحثين المعاصرين ساروا على منوال أولئك القدامى، مع أنَّ بعضًا من هؤلاء المعاصرين حاول مجتهدًا إعطاء تصور لحدود الإقليم.

ومعظم أولئك المؤرِّخين والبلدانيين يرى أنَّ إطلاق اسم (اليمامة) على هذا الجزء من الجزيرة العربيَّة إنَّما جاء من اسم امرأة طسميَّة، هي: (اليمامة بنت سهم) المعروفة بـ (الزرقاء، أو زرقاء اليمامة)، وذلك عبر قصة يتناقلونها، ويطول شرحها هنا، وهي إلى الأسطورة أقرب منها إلى الحقيقة، لكن بعضًا آخر من هؤلاء يرى أنَّ تسمية هذا الإقليم باليمامة تسمية أقدم من ذلك؛ لأنَّ زرقاء اليمامة مضافة إليه، وهو ما نميل إليه، والأسماء على أيَّة حال لا تُعلَّل.

وكان هذا الإقليم، قبل تسميته باليمامة، يُسمَّى: (جوًا)، وقد أصبح اسم (جو)

بعد تلاشيه يطلق على أماكن محددة ومتفرقة في هذا الإقليم حتَّى اليوم، مثل: (جو) الواقعة إلى الغرب من المزاحميَّة، و(جو) الواقعة إلى الجنوب من مدينة الرِّياض.

وعلى أيَّة حال، وممَّا لا شكَّ فيه إنَّ إقليم اليمامة في شتَّى العصور يشمل ما يُدعى في العهد الحاضر: الأفلاج، والفرع (الحوطة، والحريق)، والخرج، والعارض، والشعيب، والمحمل، وسدير، ومعظم أهله من بني حنيفة، وتميم.

وقد ظلَّ اسم (اليمامة) شائعًا وشاملًا لهذا الإقليم لدى النَّاس، وفي كتب التَّاريخ والبلدانيَّات، خلال العصر الجاهلي، وفي عصور الإسلام الأولى، إلَّا أنَّه أخذ يتلاشى أيضًا إلى أن اقتصر على قاعدة الإقليم، سواء أكانت (حجرًا)، أو (الخضرمة) - أيًّا كانت إحداهما هي مقر السلطة الحاكمة - فأطلق في عهد الأخضريين على (الخضرمة)، أو (جو الخضارم) الَّتي هي اليوم اليمامة إحدى مدن الخرج، وأطلق في فترة لاحقة على (حجر) على عهد أمرائها من بني حنيفة على نحو ما سيأتي إيضاحه، إلَّا أنَّ إطلاقه على (الخضرمة) هو الَّذي غلب واستمر.

وإطلاق الاسم العام للإقليم على جزءٍ منه له نظائر في كثير من البلدان والعواصم العربيَّة، فعلى سبيل المثال: يطلق المصريون على القاهرة اسم (مصر)، مع أنَّ اسم مصر شامل، وعام للقطر المصري كله، فكأنَّهم بهذا يؤكدون أنَّ عاصمة البلاد تعني كل البلاد؛ لأنَّها رمزها بالنِّسبة إليهم، وكذلك الحال في (سورية)؛ فيطلقون على دمشق اسم: (الشَّام) مع أنَّ الشَّام تشمل سورية كلها، بل تشمل سورية التَّاريخيَّة التي تضم (سورية، ولبنان، وفلسطين، وأجزاء من شرق الأردن).

وعندما فتحت العرب بلاد المغرب الأوسط (تونس، والقيروان وما حولهما)

أسموها: (إفريقية) مع أنَّ هذا الاسم يعني قارةً بأكملها، ولكنَّه من باب تسمية الخاص باسم العام.

وقد يطلق الاسم على الإقليم، وإحدى مدنه في آن واحد، بمعنى: أنَّهم قد أطلقوا اسم (اليمامة) على الإقليم كله، وفي الوقت نفسه أطلقوه على الخضرمة، أو على حجر، ونحن نشاهد اليوم شبيهًا بذلك، فالجزائر - مثلًا - اسم للقطر كله، وهو أيضًا اسم لعاصمته.

ويبدو أنَّ تسمية (الخضرمة) - لاحقًا - بـ(اليمامة) هو من هذا القبيل، فهو لا يخرج عن تلك النظائر على ما أظن.

وقد يكون منشأ التَّسمية - وهو ما أتوقعه - أنَّ القاصدين للخضرمة عاصمة الأخيضريِّين يعنون في توجُّههم إلى اليمامة أنَّهم يقصدون قصبة الحكم بها، فيقال - مثلًا -: فلان ذاهب إلى اليمامة، أي: إلى قاعدتها، فعلق ذلك بالأذهان، واستقر على أنَّ المقصود هو الخضرمة، ومع الأيَّام انحسر اسم اليمامة (الإقليم)، وأصبح مقصورًا على بلدة اليمامة المعروفة اليوم.

وهكذا أيضًا أسموا (حجرًا) في فترة من فترات تاريخها بـ(اليمامة)؛ فهذا أحد الرحالة العرب - وهو ابن بطوطة - في القرن الثَّامن الهجري أطلق اسم (اليمامة) على مدينة (حجر) عندما وصل إليها؛ حيث إنَّه قال: «، ثمَّ سافرنا منها - أي: من الأحساء - إلى مدينة اليمامة، وتسمى أيضًا بحجر... »، فهو قد سمَّى (حجرًا) الَّتي هي قاعدة اليمامة في عهد أميرها/ طفيل بن عامر الحنفي يومذاك، أي: بعد أن استردت عافيتها ومكانتها التَّاريخيَّة كقاعدة لليمامة - قد سمَّاها باليمامة - وهذا

يعني إطلاق الاسم العام للإقليم على قاعدته الأولى (حجر) بعد أن استعاد بنو حنيفة سلطتهم، وكيانهم القبلي على البلاد.

وهذا شبيه بإطلاق اسم (اليمامة) على قاعدة الإقليم في زمن الأخيضريِّين - الخضرمة - الَّتي نسميها اليوم اليمامة، كما ذكرنا من قبل.

بيد أنَّ تسمية الأقدمين لموقع بلدة اليمامة الحاليَّة باسم (الخضرمة) أو (جو الخضارم) دون اسم اليمامة يدلُّ بلا شكّ على أنَّ اسم اليمامة لم يكن علمًا على هذا الموقع حينذاك، وإنَّما هو اسم شامل للإقليم، وأنَّ تسمية الخضرمة به قد طرأت فيما بعد.

والمؤرخون والبلدانيون يعدُّون (حجرًا) حاضرة إقليم اليمامة، وعاصمة الحكم والسُّلطان، وهي مقام الولاة طيلة عصورها التَّاريخيَّة، وذلك باستثناء فترة حكم بني الأخيضر الَّتي امتدَّت من سنة (٢٥٣هـ) وحتَّى سنة (٤٥٠هـ) - تقريبًا - وكانت حاضرة السُّلطة فيها خلال هذه الفترة: هي (الخضرمة).

وعندما يضعون (حجرًا) أولًا ثم (الخضرمة)، وعلى ذلك بني الأخيضر، ويحسن بنا أن نشير إلى أنَّ فترة حكمهم لليمامة كانت فترة حالكة وقاسية في تاريخها؛ حيث إنَّ أهلها لاقوا شتَّى صنوف الإهانة، والأذى، والظلم، وقد قاسموهم أرزاقهم ومعاشاتهم، ونتاج أرضهم؛ الأمر الَّذي اضطر كثيرين من أهل اليمامة - لا سيَّما بني حنيفة - إلى ما يشبه الهجرة الجماعيَّة، إلى مختلف الآفاق كالبصرة، والشَّام، ومصر، والسودان، وهو أمر تشهد به كتب التَّاريخ وسواها، ويبدو من كثافة هذه الهجرة أنَّ بني حنيفة قد صار لهم الحكم والسيادة في منطقة من مناطق جنوب مصر تسمى

العلاقي، وهي قريبة من (أسوان)، فكان يحكمها شخص من بني حنيفة، كما ذكر ذلك ياقوت الحموي في كتابه: (معجم البلدان).

ولمَّا انحسر حكم الأخيضريِّين، وانزاح الغم عن الصدور، وبدأ النَّاس يتنفسون الصعداء؛ فعادت اليمامة تحكم نفسها من قبل أهلها من بني حنيفة، وعادت الحجر - العاصمة الأولى - مكانتها كونها قاعدة للإقليم، ولكنَّ اسمها هذا قد أخذ في التَّلاشي مع بداية القرن العاشر الهجري على وجه التَّقريب، لتقوم على أنقاضها مدينة الرِّياض.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الحياة-العدد -، بتاريخ/ / ١٤هـ.

حمد الجاسر و(اليمامة)

لعلِّي لا آتي بجديد اليوم؛ فقصَّة (اليمامة)، وخطوات إصدارها، وما اعترض صاحبها ومسيرتها، هي أمور تكاد تكون معلومة من خلال ما كتبه صاحبها نفسه عن ذلك، أو ما كتبه بعض مؤرِّخي الصَّحافة السُّعوديَّة، وهي أيضًا أمور عايشتها، وذلك بحكم قربي من صاحبها أثناء تلك الفترة.

ومع أنَّي قد عملت مع صاحبها الشَّيخ/ حمد منذ إنشائها، فإنَّني لا أدَّعي أنَّ لي أثرًا، أو تأثيرًا في مسيرتها؛ فصاحبها كان هو قطبَها الأوحد؛ وعلى جهده الشخصي قامت اليمامة، ونشأت، وترعرعت، وتطورت، واستمرَّت شامخةً تجاهد، وتنافح، وتنير السبيل سنينًا طويلة، فكانت بحقٍّ رمزًا وطنيًّا، وقد أدَّى هذا الرمز دوره في تاريخ هذه البلاد (الفكري، والثَّقافي، والاجتماعي) وإنَّ عصاميَّة صاحبها كانت أقنوم نجاحها بلا شك.

لقد بدأت علاقتي بـ(اليمامة) منذ صدورها - كما قلت - وأمَّا علاقتي بصاحبها فكانت قبل ذلك بقليل، أي: علاقة تلميذ بأستاذه، وذلك يوم أن كنت طالبًا في بداية المرحلة الثَّانويَّة.

كان الأستاذ/ حمد في بداية السَّبعينيات من القرن الهجري المنصرم، معاونًا لمدير المعهد العلمي، وكان إلى جانب ذلك يدرسنا بعض المواد، وأثناء مهمته هذه أنشأ مكتبة تجاريَّة كانت تستورد الكتب (الدينيَّة، والأدبيَّة، والتَّاريخيَّة، والتراثيَّة) وتبيعها إلى جانب مؤلفات المعاصرين من: العلماء، والأدباء، والشُّعراء، كما كانت تجلب

الصُّحف المصريَّة واللبنانيَّة أيضًا، فكانت المكتبة في فترة ما بعد العصر ملتقى للمتنورين، وغالبيتهم من الطُّلاب، فكان له ولهذه المكتبة الأثر الحميد في توجهاتهم.

أعود إلى اليمامة، فأقول إنَّها صدرت مجلَّةً بعد ذلك بشهور، وهي تعنى بالتُّراث، وتدعو إلى الإصلاح بشتَّى أوجهه، وعندما تحوَّلت إلى صحيفة عامَّة عام (١٣٧٥هـ) - لم تتخلَّ عن نهجها، بل أضافت إليه العناية بهموم الحياة والنَّاس؛ فواكبت الشَّأن (السِّياسي، والفكري، والاجتماعي)في بلادنا خاصَّة، وفي العالم العربي عامَّة، فعالجت عديدًا من الأمور الَّتي كانت تشغل الأذهان يومذاك.

وكانت السَّباقة - مثلًا - إلى معالجة أحوال إخواننا أبناء البادية، من: توطينٍ، وتعليمٍ، وتحسينٍ لأسباب العيش والحياة، وقد أصدرت في بداياتها - وهي مجلَّة - عددًا خاصًّا عن البادية، شاركت فيه أقلام وطنيَّة وعربيَّة، كما خصَّصت في بعض فتراتها - وهي صحيفة - إحدى صفحاتها لشؤون البادية.

وكانت السبَّاقة أيضًا إلى الدَّعوة إلى تعليم البنات، وكان هذا المطلب حلمًا من الأحلام، فلقيت دعوتُها الاستجابةَ الكريمة من ولاة الأمر وفقهم الله.

وقد ناقشت عددًا من القضايا، منها: الركود الاقتصادي، الَّذي أصاب البلاد في فترة من الفترات، وقد شاطرها في هذا النقاش بعض رصيفاتها.

وكذلك ناقشت موضوع النفط، والعلاقة بين الحكومة وشركات امتياز التنقيب عنه واستخراجه، وتصديره، بل خرج من كتابها من كان يناقش مسألة الانتخابات في ذلك الوقت المبكر، إلى جانب كتاب آخرين عارضوا الفكرة وتحفَّظوا عليها، كما أنَّ من كتابها من كانت عواطفه قوميَّة؛ تأثرًا، أو تمشيًا مع هيجان المد العروبي

الطافي على السطح في تلك الأيَّام، وآخرون كانوا رافضين لذلك، ويرون أن الفكرة الإسلاميَّة هي الأولى بأن يكون لها المقام الأول، وفريق ثالث ينتهج نهجًا وسطًا، ويتحدَّث عمَّا أسماه بـ(العروبة المسلمة).

وكانت الأجهزة الحكوميَّة - لا سيَّما أجهزة الخدمات العامَّة والمرافق - موضع مناشدةٍ وسؤالٍ عن أي تقصير يبدر؛ فكان (صوت الجمهور) في ذلك عاليًا، وكانت (رسائل المدن والأقاليم) تزخر بالنَّقد، والمطالبات، والاقتراحات.

وكل ذلك كان يجري في وقت لا يزال الوعي العام فيه يحبو، والشَّيخ/ حمد - إزاء كل ذلك - كان يمسك بالزمام؛ فلا يسمح بتخطي الحدود المحذورة، وقد كان يقرأ الحروف قبل الكلمات.

وهنا يحسن ألَّا ننسى ذلك المؤتمر الصَّحفي الَّذي عقده سمو الأمير/ فيصل (الملك فيما بعد) - رَحِمَهُ اللهُ - والَّذي أعلن فيه إلغاء الرقابة على الصُّحف، ووضع رؤساء التَّحرير أمام مسؤولياتهم.

وهكذا استمرت اليمامة في نهجها بخطواتٍ رصينةٍ، يعرف هذا كل من عاصر تلك الفترة، وقد عانى الشَّيخ/ حمد من (الجهد، والعناء، والمواجهة) الكثير، وربَّما تعرضت الصَّحيفة إلى السخط، والمساءلة، والتوقيف.

ولقد كان لي ولعدد من الإخوة الكُتَّاب شرف المساهمة في تحرير الصَّحيفة، ومنهم الأساتذة: عبد الكريم الجهيمان، وسعد البواردي - متعهما الله بالصحة والعافية - علي العبداني، وعبد العزيز ساب - رَحِمَهُ اللهُ -، بل شرفت بأن أنابني الشَّيخ في تولي تحرير الصَّحيفة عند بعض سفراته العلميَّة، أو سفراته التي كانت

من أجل تطوير مطابع الرِّياض، ومن أبرز مميزات شيخنا منحه الثقة المطلقة لمن يعمل معه، أو ينوب عنه؛ فلا يكاد يسألهم عن هفواتهم، وما أكثرها! إلَّا لمامًا، أو من باب التَّوجيه والتَّقويم.

ولعلَّ من أبرز ما يلحظه المتعاونون معه: غيرته الشَّديدة على اللُّغة الفصحى؛ فهو لا يتساهل مع الكلمات الدَّخيلة، ولا مع مخالفة قوانين الفصحى فقهًا، ونحوًا، وصرفًا، وكان هؤلاء يحسبون لهذا حساباتهم، ويتحاشون الوقوع في شيءٍ من ذلك، سواء فيما يكتبونه، أو ما يكتبه الكتَّاب والمراسلين؛ فلا يسمحون بتسرب أي خطأ من هذا القبيل إلى أعمدة الصَّحيفة.

ولا بأس أن أشير هنا إلى ما كتبه أحد محرري الصَّحيفة، من أنَّ أحدهم - ولعله يقصد الشَّيخ فيما يتناقله العاملون في الصَّحيفة - سُئل: ما هي (مشكلة) المشاكل؟ فأجاب: جمع (مشكلة) على (مشاكل)، وسواء أكان هذا على سبيل المزاح، أم أنه حقيقة، فهو ينمُّ عن مقام الفصحى لدى الشَّيخ، فمشكلات الحياة العامَّة بناء على هذه الإجابة تهون أمام خطأ في جمع كلمة، وكان الأوفق أن يُقال (مشكلات) وليس (مشاكل)!.

ورغبة الشَّيخ في أن تخرج الصَّحيفة خاليةً من شتَّى الأخطاء جعلته يقرأ ما سينشر في الصَّحيفة بنفسه؛ فيقوِّم المعوج، ويصحِّح الخطأ سلفًا، فهو في الغالب يصحح تجارب الطِّباعة بنفسه، وفي هذا غاية الحرص على أن تخرج الصَّحيفة دون أي خطأ طباعي، أو لغوي، لكنَّه لا يتعرض إلى فكرة الكاتب، أو يمسَّها بأي تحريفً، يعاونه في هذه المراجعة أحد العاملين معه؛ لمقابلة المطبوع بالأصل.

وقد ظلَّت (اليمامة) شعلةً وهَّاجةً، ومنارةً سامقةً على مدى نحو عشر سنوات، حتَّى حدث ما حدث، فنقل امتيازها إلى غيره.

كما ظلَّت (دار اليمامة) بشارع المرقب طيلة تلك الحقبة منتدى للأدباء والمثقَّفين، وملتقى لكثير من الوافدين من أدباء العرب ومثقَّفيهم، ممَّن يأتون إلى البلاد في مناسباتٍ شتى.

رحم الله شيخنا وغفر له.

❁❁❁

لكي لا نكون أمام خرّيجين ينوء بهم كاهل الوطن!

١ - لدينا سبع جامعات تضم آلافًا مؤلَّفة من شبابنا، وهناك في نهاية كلِّ عام دراسي أرتال هائلة من خرِّيجي الثَّانويَّة العامَّة، وخرِّيجي المعاهد العلميَّة والتجاريَّة، ومن في حكمهم، المتَّجهين في لهفة عارمة إلى هذه الجامعات.

ولا أحد ينكر أنَّ العلم نور، بل هو كالشمس والهواء بالنِّسبة إلى إنسان اليوم، كما لا ننكر على أيِّ فرد حقَّه المشروع في التَّعليم.

ولكن الاتجاه إلى التَّعليم الجامعي على هذه الصُّورة، وبهذا الزخم -من دون أي اعتبارٍ للحاجة الفعليَّة الَّتي تمليها المصلحة الوطنيَّة أولًا- قد يجعلنا أمام (متخرِّجين) ينوء بهم كاهل الوطن والدَّولة، سواء من ناحية تدني المستوى التحصيلي لهم، أو من ناحية عدم الحاجة إلى بعض اختصاصاتهم الدِّراسيَّة، أو من ناحية تزاحمهم أمام مكاتب التوظيف والعمل؛ بحثًا عن وظيفة قد لا يكون لها حاجة أصلًا! وإن كانت شاغرة في الميزانيَّة!

وهذا التَّوقُّع بدأت بوادره تلوح في الأفق محذِّرًا ومنذرًا، بل هو حقيقة أصبح يعيشها خرِّيجو بعض الاختصاصات الجامعيَّة.

ولربَّما كان عدد الجامعيين عندنا - بالمقارنة مع عدد السكان - يمثل نسبةً تفوق نسبة الجامعيين في بلدان أخرى سبقتنا بمراحل في شتَّى المضامير: (الحضاريَّة،

والعلميَّة، والثَّقافيَّة، والصناعيَّة)، وتمتلك من أسباب المادة والقوة ما هو كفيل بجعلها في الصدارة بين أمم الأرض!

٢ - إنَّ أشدَّ ما يخشاه (وطنيٌّ) غيور: أن يصبح التَّعليم الجامعي في بلادنا امتدادًا للتَّعليم العام، وبهذا يفقد روحه وهدفه! ونخشى أن نكون بهذا قد كرَّرنا ما وقعت فيه بلدان شقيقة سبقتنا في مجال التَّعليم الحديث؛ فنسير على خطاها التَّائهة - في أسف وغفلة - دون عبرة، أو اعتبار بما آلت إليه الحال لديها!

ولكنَّنا - على أيَّة حال - مازلنا في سعة من الزَّمن، وفي مكنة من استدراك الأمر، ولدينا - بفضل الله - من سداد الرَّأي، ومن أسباب الإنفاق ما يجعلنا قادرين على المراجعة، والتقويم، والاستفادة من تجارِب الأمم الأخرى، الدَّاعية لنفسها اليقظة أمام متطلباتها، ولن ينقصنا قطعًا إخلاص كإخلاصها، ولا طموح كطموحها.

ومجالات الحاجة التَّعليميَّة كثيرة ومتنوعة، وهي تلتقي في معظمها على ضرورة توفير جيل فنِّيٍّ سعودي يسدُّ متطلبات حياتنا كافة في أسرع وقتٍ ممكن، وبأبسط السبل، وأقلها كلفة.

ونحن ما زلنا نستقدم عشرات الآلاف، بل مئاتها من ذوي الاختصاص الدَّقيق، المتبين في شتَّى أنشطتنا الحضارة، سواء على مستوى الحاجة الفرديَّة، أو على مستوى حاجة المؤسَّسات والشَّركات، أو حتَّى في الأجهزة الحكوميَّة، حيث إنَّه يُستعان بالفنيِّين غير السُّعوديين في مختلف الأعمال، وبخاصَّة في حقول: التَّشغيل، والصيانة للمنشآت، والمرافق الحيويَّة القائمة، والَّتي تتطلَّب مستوى فنيًّا متقدِّمًا وذا تأهيل جيِّد، وخبرة كافية، على أنَّ الخبرة تكتسب من الممارسة مع الوقت، وتنمو

مع توفر وسائل الدعم والتَّشجيع، ومن ذلك: حوافز العمل الَّتي تشد الشَّخص إلى مجاله، وتغرس فيه روح الولاء لعمله، وأما التَّأهيل، أو فتح باب ذلك الضَّرب من التَّعليم على مصراعيه، وبذل المزيد من العطاء المادي والمعنوي في سبيله، فهو مرمى حديثنا هنا، وبيت القصيد فيه، فلماذا لا نأخذ بأيدي أولئك الشَّباب المتطلعين إلى غدٍ أفضل نحو تلك الآفاق الرَّحبة؟

٣ - إنَّ التَّعليم الفني والحرفي في بلادنا ما زال يمشي على استحياء، بالرغم من عمره غير القصير، وما زال يفتقر إلى (وقودٍ) معنوي يدفع بعجلته إلى الأمام، وهو في مسيس الحاجة إلى (شحنات) نفسيَّة وتربويَّة تكسر الحواجز دونه، وتعمل على تكوين بيئة اجتماعيَّة مناسبة تجعله مطمح شبابنا، ومقصد توجّههم.

ثمَّ إنَّ واجبنا - من خلال خطط التَّنمية الوطنيَّة - تكثيف الجهود، وتسخير الأسباب؛ لدعم جانب التَّعليم (التّقني، والمهني، والحرفي)، وجعله هدفًا استراتيجيًّا لا مندوحة عنه، وأن يكون انتشاره مبتغى وطنيًّا، وليس في كل مدينة فحسب، وإنَّما في كل قريةٍ وهجرة، كما أنَّ من واجبنا أن نطور أساليبه، ونرفع من كفاءة كوادره، وننهض به من واقعه، وأن نصنع منه أداة وطنيَّة فعَّالة وثمينة؛ وذلك بتخرِّيج جيل فنِّيّ قادر على تلبية احتياجاتنا كافَّة، وأن نهيِّئ لهذا الجيل ما هو حريٌّ به فعلًا، وبهذا نضع أمام مؤسَّساتنا الخاصَّة والعامَّة مبتغاها من الكفاءات المهيَّأة (علميًّا، وتدريبيًّا، ونفسيًّا)، بل سنجد هذه الكفاءات تعرض نفسها في هدوءٍ وثقةٍ على أرباب الأعمال في النهاية، وتجعل هؤلاء يسعون إلى استقطابها مختارين، من دون تدخل من مكتب عملٍ، أو توظيفٍ.

وإنَّنا لنذهب إلى أبعد من ذلك، فنطمح إلى تصدير الكفاءات الفنية - يومًا ما - إلى بعض الدُّول الشَّقيقة المجاورة الَّتي تعاني من قلَّة السُّكَّان، ومن ثَمَّ يتعذَّر عليها توفير الكفاءة الفنيَّة الوطنيَّة اللَّازمة لها، وهي من أجل هذا تستقدم، وستستمر تستقدم الأعداد الهائلة من الفنيِّين الماهرين؛ لسد متطلباتها القائمة والمتنامية، وتصدير الكفاءات لا يقلُّ بحالٍ عن تصدير الخامات الكامنة من تحت الأرض.

ولا ريب أنَّ الفنيَّ الماهر سيجد نفسه، بعد تخرُّجه أمام فرصة ماديَّة جيِّدة تفوق الفرصة المتاحة لزميله خرِّيج الجامعة، ولا سيَّما خرِّيج الكليات النظريَّة، أو الَّذي بات اختصاصه كاسدًا، وما عليه - أمام واقعه - إلَّا أن يعمل في وظيفة كتابيَّة متى ما أتيحت له هذه الوظيفة!

٤ - ولعلَّ من الطَّريف أنَّ نجد من ينادي بإنشاء جامعة أهليَّة لاستيعاب الطلاب الَّذين لا تستطيع جامعاتنا السبع قبولهم، من دون تفكير في الجدوى والنتيجة!

ولست أدري، هل ستكون هذه الجامعة تكرارًا لجامعاتنا القائمة في أسلوبها، واختصاصاتها، ومناهج أدائها؟ أم ستكون (ملاذًا) أمينًا لذوي المستويات المتدنيَّة من خرِّيجي التَّعليم العام، ممَّن لم تسعفهم (مجاميع) درجات التخرج من دخول إحدى هذه الجامعات؟ ولكنَّهم - على أيَّة حال - قادرون على دفع التَّكاليف الماليَّة للالتحاق بالجامعة والاستمرار بها، وعندئذٍ تصبح هذه الجامعة المقترحة جامعة لأبناء الموسرين، كأنَّما نحن نعزلهم عمدًا عمَّن سواهم، وهذا ما لا نريده أبدًا، بل ما لا تقبله طبيعة مجتمعنا!

وأمَّا إن كانت هذه الجامعة ستنحو منحى علميًّا آخر، وأنَّها لن تصبح (نسخة)

عـن غيرها، وأنَّها ستسـد نقصًا فـي احتياجاتنا العلميَّـة؛ فإنَّها عمل يستوجب التَّرحيب، والتَّأييـد، والمشـاركة في قيامها.

وبعد، فنحن لا نشـكُّ في إخلاص القائمين على شـؤون التَّعليم الجامعي في بلادنا؛ فهـم - كمـا نعلم جميعًـا - من صميم هـذا الوطن، ونبت ثـراه، وقد أعطوا هـذا التَّعليم كثيـرًا مـن صادق النيَّـات والجهود، ولكنَّنا - مـع ذلك - لا نجد حرجًا فـي دعوتهم إلى إجـراء تقويـم عاجل لواقع هذا التَّعليم؛ ليكون منسـجمًا مع متطلباتنـا القائمة والآتية.

كمـا لا نشـكُّ فـي الجهـود الَّتـي تُبذل فـي مجـال التَّعليـم التقنـي والمهنـي، وهي جهـودٌ لا ينكرهـا إلَّا جاحـد، ولكنَّنـا نعيـش هاجسًـا وطنيًّا يحملـه كلُّ منَّا فـي وجدانه؛ بـأن يكـون لهـذا الجانب مـن التَّعليم الحـظ الأوفر مـن اهتماماتنـا، وخططنـا التنمويَّة، وبـأن نـرى جحافـل شـبابنا تتَّجه صوب هـذا التَّعليم فـي ثقةٍ مـن نفسـها، واطمئنان إلى غدهـا، وبـأن نراهـا تفـرض نفسـها - بجـدارةٍ - علـى شـتَّى مجـالات العمـل، ومرافق الإنتـاج فـي وطنها.

وأنَّـى لوطـن أن ينهـض نهضـة حقيقيَّـة، ويتخطَّـى حواجـز الزَّمن على غيـر أكتاف بنيه وسـواعدهم؟![1]

❁❁❁

(١) نُشرت في مجلَّة «اليمامة» - العدد (١٣١٨) - بتاريخ ٩/ ٣/ ١٤١٥هـ.

فاجعة عربيَّة جديدة!

ما كان سيدور في خلد (عربيٍّ، أو مسلم) أنَّه سيعيش زمنًا مهينًا، تنتهك فيه القيم والأعراف، وتُستباح فيه المحرَّمات والأعراض، وتداس فيه المبادئ، والقوانين، والمواثيق، على النحو الَّذي نعيشه اليوم، ويعيشه العالم أجمع! إذ إنَّه كيف يذهب الغرور بفرد إلى هذه الحال الفاضحة من الهوج، والنزق، والرعونة، والتسلط؟ فيغزو بجحافله الجرارة - دون أدنى مبرر - بلدًا صغيرًا مسالمًا، لا حول له ولا طول، فيفعل فيه ما يفعل من أمور يندى لها جبين الضمير، والخلق، والإنسانيَّة، وكأنما قد عاد إلى الدُّنيا تيمور لانك، أو هولاكو من جديد!

لقد دخل العراق حربًا غشومًا مع جارته إيران في ظروف، وتحت أسباب ليس هنا مجال نقاشها، ووجدت معظم الدُّول العربيَّة - ولا سيَّما دول الخليج - أنَّ هذه الحرب قد أفرزت ظروفًا اضطرتها إلى مساعدته، فضلًا عن كونه البلد العربيّ الشَّقيق، فكان أن بذلت له المال والعتاد بسخاء متَناهٍ، وسخَّرت له طاقاتها كافَّة من دون حسابٍ، وكأنَّ هذا - في كثير من الأحيان - على حساب احتياجاتها الأساسيَّة والدِّفاعيَّة، وخُططها التَّنمويَّة والتَّطويريَّة، وقد ظلَّت أوزار الحرب قائمة على مدى ثماني سنوات، حتَّى انتهت إلى إحراز العراق النَّصر، وانطفاء جذوة القتال.

ومن الجحود أن ننسى - في هذا الصَّدد - الجهود والتضحيات الَّتي قدَّمها أبناء

العـراق، شـعبًا وجيشًـا؛ حتَّـى تحقَّـق النَّصر وبرز العـراق فـي عالمنا العربـي في صورة الفـارس الظَّافر.

وفي أعقاب ذلك، واجه العراق حالًا مشينة ومتردية من الدمار، والتدهور النَّفسي والاقتصادي، ممَّا دعا تلك الدُّول - ولا سيِّما المَملكَة العربيَّة السُّعوديَّة - إلى دعمه الفوري؛ وذلك بأسباب البناء، والتعمير، وإزالة آثار تلك الحرب في مدَّة قياسيَّة من الزَّمن، استعاد بعدها العراق أنفاسه، وعُمّرت مدنه المدمرة، ومنشآته المتهالكة، ونهوض اقتصاده من كبوته، وأعاد تجهيز جيشه؛ ليصبح أقوى جيشٍ ضاربٍ في العالم العربي.

ولكن هذا الواقع الجديد الَّذي قام على أكتاف الدعم السُّعودي والخليجي، وساعد شعب العراق، قد نفخ أوداج العظمة المريضة في القيادة العراقيَّة، وأوحى إليها بتخيلات غريبة خادعة، وبأطماع واهية عليلة؛ وفي لحظات نرجسيَّة أرادت تلك القيادة أن تحول التَّخيلات والأطماع إلى حقائق، ومسلَّمات أمام العالم، متناسية كل ما يدور في هذا العالم من مشاعر، وقيم، ووشائج، وارتباطات، وعهود، ومصالح، وقد انتهى بها الهوس أخيرًا إلى الرغبة في توسُّع امبراطوري بشع وبليد؛ فخطَّت خطوتها نحو الكويت، وقد كانت هذه الخطوة عارًا عليها، بل عارًا على التَّاريخ العربي الحديث برمته!!

ذلك أنَّ ما حدث للكويت، من غزوٍ واحتلالٍ، وترسيمٍ لأغرب حكومة في التَّاريخ، وضم للكويت إلى العراق على نحو مضحكٍ ومبكٍ في آن واحد، وما تخلَّل كل ذلك من: سلبٍ، ونهب، وتشريد، وفوضى، كلها أمور تمثل كارثة عربيَّة مفجعة

بكلِّ المفاهيم والاعتبارات، وتجعل العربي الحر يحني رأسه حسرة، وخجلًا، وذلًّا، أمام نفسه، ومجده، والعالم الواقف على أعتاب القرن الحادي والعشرين، بل أمام بدهيَّات الفكر البشري!

لقد بات العربي اليوم وكأنَّه يعيش أسطورة من أساطير المستحيل، أو حلمًا مزعجًا انقض عليه في مضجعه!

ولا أدري - وأنا أتابع شريط الأحداث، وأسمع هذيان الغزاة - أي دين يتشدَّق به هؤلاء ودستورهم يقوم على (علمانيَّة) الدَّولة؟! وأيُّ قوميَّة يطنطنون بها وهم أوَّل من افترس مثاليَّاتها، وداس كرامتها على أرض الكويت؟!، وأيُّ وِحدة ينادون بها، وقد أقاموها على (الغدر، والقهر، والاستخفاف) بإرادة الأُمَّة؟!

وأيُّ وطنيَّة يرتدون مسوحها، وهي - من واقع حالهم - لا تعدو أن تكون مغامرة بالوطن والمواطن، وتعريضهما للدمار والفناء؟!

وأيُّ مبدأ ينتهجونه لأنفسهم، وهم الَّذين ما فتئوا يمثلون - في كلِّ ساعةٍ ولحظةٍ - مسلسلًا غريبًا متواصلًا من التناقض، والتذبذب، والخداع؟!

وأخيرًا - وتتويجًا لكلِّ ذلك - يجيء الاستسلام المعيب المخزي عندما أعطوا شط العرب لإيران، ووافقوا على العودة إلى اتفاقيَّة الجزائر الَّتي مزقوها بالأمس بعد حربٍ استمرَّت ثماني سنوات؛ أكلت الأخضر واليابس، وحصدت ما يقرب من مليون نفس، ودعك من الخسائر الماديَّة والاقتصاديَّة، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله! ولا نقول إلَّا كما قال الشَّاعر العربي:

يُقضى علـــى المـــرءِ في أيّام محـنـته حتّى يرى حسـنًا مـا ليس بالحسـن!

وأوشكت حلقات الصُّورة المعتمة أن تكتمل باحتماء جيش العراق العربي بما أرادته له قيادته الظالمة، وذلك عندما عدَّت هذه القيادة النِّساء والأطفال من الرَّعايا الأجانب المقيمين بالعراق والكويت (رهائن)، ووزَّعتهم على المنشآت العسكريَّة في العراق؛ ليكونوا درعًا حاميًا من أيِّ هجوم!

إنَّها بادرة خزيٍ وعار في تاريخ العسكريَّة العربيَّة، فكيف يقبل جيش العراق بهذا؟!

لستُ أدري، أنحن في عصر همجيَّةٍ عربيَّة؟!

أهذا الَّذي يحدث اليوم حقيقة أم خيال؟! هل هذا (الغازي) عربيٌّ حقًّا؟!

أم أنَّه - كأقران له آخرين - (أنموذج) جديد، محكم الاختيار والتَّربية، أفرزته (مدارس) الصُّهيونيَّة الخبيثة، ومخطَّطاتها اللَّئيمة؛ ليقود - ومن حيث لا ندري - بلدًا عربيًّا - وهو العراق - إلى الهاوية؟!

وبعبارة أخرى: ألَّا يكون هذا (الغازي) دمية كبيرة من تلكم الدُّمى الَّتي زخر بها تاريخنا المعاصر مع الأسف، والَّتي ما زالت غصَّة في حلوق العرب، بما تمهد به من تصرفات لتحقيق أحلام اليهود فيما بين النِّيل والفرات؟!

لا ندري، ولكن حظ إسرائيل يفلق الصخر، وليس أبرد على قلبها من هذا الَّذي يجري!

ومع هذا وذاك، ومع أنَّ الإنسان العربي قد أصبح في ذهولٍ والحليم قد بات

حيران لا يدري كيف يفكِّر؟! ولا ماذا يصنع؟! فإنَّ هذا الإنسان ما زال - والحمد لله - يحمل في طيَّات نفسه روحًا متوهجة من التفاؤل، والأمل بمستقبلٍ عربيٍّ حيٍّ وعظيم.

وأقول: إنَّ ما ينتاب الجسم العربي اليوم من عللٍ وأوباء، وما يحيق به من كيد وسوء إنَّما هو المخاض الَّذي ستعقبه - بإذن الله - ولادة حياة عربيَّة راشدة تسود أمتنا، وتعيد إليها اعتبارها أمام الآخرين.

ذلك أنَّ ما حدث ويحدث، إنَّما هو دروس إلهيَّة سوف تجعلنا نثوب إلى رشدنا، وربما صحَّت الأبدان بالعلل![1]

❁❁❁

(١) نُشرت في جريدة الرِّياض، بتاريخ: ٣/ ٢/ ١٤١١هـ.

خواطر من وحي الفاجعة!

كنَّا نحسب بعد عقود من الزَّمن ابتلي فيها العرب بصنوف من الأزمات، والمحن، والكوارث، أنَّ دروسًا كافية قد استقوها، وأنَّ من شأن هذه الدروس القاسية أن تعيد الضالين والمخدوعين إلى منطق الرشد والعقل؛ نظرًا إلى هول النتائج الَّتي خرج بها التَّاريخ العربي المعاصر، ولحجم العبر الَّتي يُفترض فيها أن تكون نبراسًا مضيئًا، وهاديًا إلى جادة الصَّواب نحو حياة عربيَّة بالغة عاقلة.

بيد أنَّ الأمر - على ما يبدو - لم يكن كذلك؛ فقد أعادت الأحداث الأخيرة بعض العرب إلى صباهم - إن جاز التعبير - وأبرزت أنَّ الجسم العربي ما زال يعاني من أدواء وبيلة، لم تبرح جراثيمها الفتَّاكة، ذلك الجسم بعد!

ويظهر أنَّ مفاهيم (التَّقدميَّة، والثَّوريَّة، والقوميَّة) لدى البعض من العرب ما زالت تسلك فجاجًا فوضويَّة، وغوغائيَّة، وتخبط في صحراء مقفرة من الَّتيه الفكري والعقلي، كما يظهر أنَّ جانبًا من توجُّه الإنسان العربي ما فتئ أسيرًا للمفاهيم المرتبكة، أو الخاطئة، بل ضحيَّة سهلة لها، وعلى مستوياته كافة مع الأسف.

ولهذا يعاني الواقع العربي مرارة قاسية أفرزتها تلك المفاهيم، وهي مرارة ستبقى في ذاكرة تاريخ المستقبل العربي، شأنها شأن ظواهر التاريخ الكبرى الأخرى.

وبدلًا من أن تنمو المشاعر الوطنيَّة والقوميَّة نموًّا صادقًا، وخاليًا من الأوشاب،

وتستظلُّ بالشمائل العربيَّة، والقيم الروحيَّة؛ بقينا أو بقي بعض منا يعيش مراهقة قوميَّة، وظلَّت السَّاحة العربيَّة يكتنفها الكثير من الأفكار النَّشاز، ويغشاها من آن لآخر رموز غريبة ظاهرها عربي، وباطنها مريب، تعمل على الانحراف بالقافلة العربيَّة إلى متاهاتٍ ومغبَّات، وذلك من حيث تدري، أو لا تدري!

والمراهقة القوميَّة ندُّ الغوغائيَّة، وهي ليست وقفًا على أولئك الَّذين تستخفهم كلمة مثيرة، أو مناداة بشعار من: حاكمٍ، أو رئيسٍ ثوري موتور، فيهبون السَّفارات لذلك الحاكم، أو الرئيس، ويصبون جام غضبهم اللفظي على الإمبرياليَّة وعملائها، منادين بالويل والثبور، وإنما الغوغائيَّة أيضًا تعني: ذلك الحاكم، أو الرئيس الَّذي تقمَّص رداء القوميَّة والثوريَّة، فبات يمثل بحق قمَّة الغوغائيَّة، وأضحى - في غفلةٍ من الخلق والضَّمير - موجّهًا فوضويًّا متمرسًّا بعد أن خلقت منه العناية الخاصَّة حاكمًا بأمره، وها أنت تراه يترنَّح يمنة ويسرة كلَّما هتف هاتف، أو نعق ناعق باسمه، ويصفع (العقل، والروح، والوجدان) في كلِّ مناسبة.

ولا مراء أنَّ الجمهور العربي في بعض أقطاره يعيش إعلامًا رديئًا ومعتمًا، بل أكاد أقول: إنها حياة معزولة عن منطق التفكير والتبصُّر، الأمر الَّذي جعل بإمكان أيِّ حاقد أن يثير حماسًا في بعض النُّفوس الخالية، ويقتادها إلى مظاهراتٍ صارخة لا تنمُّ قطعًا عن ضمير الأُمَّة والوطن.

ولقد تداعت عليَّ هذه الخواطر وسواها، ونحن نعيش فاجعة عربيَّة جديدة؛ تمثَّلت في الاحتلال العراقي الغاشم للكويت، فبالرغم من الظلم السَّافر والبغي الغادر، وممَّا

أسفر عنه هذا الاحتلال، من: امتهانٍ وهتكٍ لكل القيم والأخلاق، ونسفٍ للعهود والمواثيق كافَّة، وإظهار للعرب أمام الآخرين بأنهم لصوص جشعون، ونكَّارون للمعروف، ووحوش كاسرة، فإننا نجد في عالمنا العربي العجيب من يطير جذلًا وفرحًا لهذا الَّذي حدث، ويُعدُّ ذلك المتوحِّش الَّذي أقدم على الجريمة الشَّنعاء بطلًا قوميًّا عربيًّا منقذًا، تتعلَّقُ به آمال العرب في الوحدة وتحرير القدس! ولا علينا! فلتظل الكلاب تعوي، ولكن قافلة الخير والحق العربيَّة ستواصل سيرها في ثقةٍ واطمئنانٍ.

وإنَّه ليملؤنا الفأل والإيمان بأنَّ المَملكَة العربيَّة السُّعوديَّة الَّتي أمسكت في حزمٍ بزمام المبادرة تجاه هذه الفاجعة المؤلمة قادرة - بإذن الله - على مواجهتها بصدقٍ وعزيمةٍ حتَّى تنقشع الغمَّة، وتنفرج الكربة، وتعود الأمور إلى طبيعتها.

ونحن في هذه البقاع المباركة لسنا في شكٍّ من ولائنا لعروبتنا، وحفاظنا على مقدساتنا، وسلامة إجراءاتنا الدفاعيَّة؛ فإنَّ عرب (الحجاز، ونجد، وتهامة، والسراة، وضفاف الخليج) هم في ذروة سنام العروبة محتد، بل هم مادة الإسلام الأولى، وأولى النَّاس غيرة على الحمى والثغور، ليس بالنِّسبة إلى وطنهم فحسب، وإنَّما لمرابع العرب كافَّة، وربوعهم من الخليج إلى المحيط.

وهذه الحقيقة يدركها الأعداء، والمتخاذلون، والجاحدون للمعروف والمساعدات من أبناء جلدتنا، بقدر ما يدركها الأصدقاء، والشرفاء، والأوفياء، ولكنَّهما (الحسد والحقد)؛ يعميان الأبصار، ويصمان المسامع!

وأمَّا القيادة العراقيَّة الَّتي وضعت العرب بهذه الحال؛ فحسبها ما هي عليه أمام

الرأي العام، ويعتقد أنَّ الدور المرسوم لها هو الآن في نهاية مراحله المسرحيَّة؛ فقد استنفدت هذه القيادة أغراضها الَّتي أريدت منها، ولم يبق أمامها إلَّا مواجهة مصير معتم رهيب، ونرجو الله أن يجنب شعب العراق البريء شرَّه!

وحسب هذه القيادة أيضًا أن تعطينا البرهان الَّذي ما عاد يقبل جدلًا، بأنَّه - وبعد التَّجربة - قد بات من السَّهل على أي مخطَّطٍ خبيثٍ استمالة أيَّ عابر سبيل، وغرسه في إحدى البؤر المشبوهة، وتعهده بالنُّمو والتَّمركز - وذلك من الباطن طبعًا - وإلباسه جلباب الوطنيَّة والقوميَّة، ومن ثمَّ اختلاق شتَّى الأسباب والملابسات؛ ليطفو ذلك الشَّخص فوق السَّطح العربي زعيمًا (شريفًا)، يتطلَّع إليه ملايين الواهمين بإكبارٍ وإعزاز، وتحقق عن طريق (زعامته) تحقيق مآرب الَّذي اصطنعوه بعد أن خدعوا به الدَّهماء والأغرار!

وهنا نقول: إنَّ الأمر لن يكون سهلًا مستقبلًا؛ فسيصحو النَّائم، والغافل، والمخدوع، والحاقد في يوم قريب!

وحسب هذه القيادة - ثالثًا - في نهاية مطافها، وهي الثوريَّة العلمانيَّة، أن تستجدي العواطف، وتتلاعب بالمشاعر الدينيَّة؛ فهي قد أعطت الدَّليل أيضًا على إفلاسها، إذ إنَّها لم تنطق بشهادة الإيمان إلَّا بعد أن أدركها الغرق!

وإعجاب لأبناء الكويت الَّذين أثبتوا جميعًا - في خضم هذه الأزمة - أنَّهم كويتيون أصلاء نبلاء؛ لم يخونوا عهدًا، ولم يخفروا ذمَّة، كما ضربوا المثل الكريم في وفائهم لبلادهم، وحكومتهم، وعروبتهم، وإسلامهم؛ فلم نسمع أن فردًا واحدًا

منهم شذَّ عن أهله وجماعته في الرَّأي، أو الهدف، بل كانوا على قلب رجلٍ واحدٍ، حتَّى أنَّ جبهة المعارضة الكويتيَّة أثبتت في مواقفها النَّبيلة أنَّ خلافها مع حكومتها كان خلافًا دستوريًّا شريفًا يسمو فوق كل الاعتبارات، ولهذا كان موقفها من الاحتلال العراقي موقفًا وطنيًّا، شهمًا، وجازمًا، خيَّب ظنون القيادة العراقيَّة الَّتي حاولت في بداية الغزو استغلالها، ولا غرو؛ فإنَّ ولاء أبناء الكويت لوطنهم ودولتهم كان في القلوب، ولم يكن مجرَّد تصفيق، وتهريج، وشعارات![1]

❁❁❁

(١) نشرت بجريدة الرِّياض، بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٤١١هـ

لا أُحبُّها ولا أكرهها!

لا أحبُّ كرة القدم؛ فأنا لا أحترفها، ولم أتعشَّقها يومًا ما، ونادرًا ما أحضر مبارياتها، وكنتُ أعتذر من الحضور، وقد يكون هذا خطأً لا أدركه، أو ربَّما أنَّها ردَّة فعلٍ تلقائيَّة لما يبدر من بعض جمهورها أحيانًا.

لكنَّني بالمقابل لا أكره هذه الكرة ما دامت في حدود المقبول والمعقول، وسببًا للمتعة المجرَّدة!

ولا أحبُّ الكرة في أيَّام الدِّراسة والعمل، وخاصَّةً في أيَّام الامتحانات ولياليها، فهي تصرف الطلاب والشَّباب عما هو أهمُّ وأجدى في هذه الفترات.

ولا أكرهها في أيَّام الإجازات والعطل، لا سيَّما العطلة الصَّيفيَّة، وعطلة منتصف العام، وإجازات الأعياد والمناسبات الوطنيَّة؛ لأنَّها تزجي أوقات الفراغ، وتُبعِد عن الشَّباب هواجس الملل ونوباته، وأخصُّ أولئك الشَّباب من ذوي المراهقة، الَّذين قد يلجؤون في غفلة من ذويهم ومجتمعهم إلى ما هو سيِّئ وخطر عندما لا يكون الموسم الرِّياضيّ قائمًا.

ولا أحبُّ الكرة الَّتي تدفع ببعض شبابنا فور نهاية المباراة إلى التَّظاهر في فوضى، والخروج إلى الطرقات والميادين (زرافات، ووحدانًا) راكبين وراجلين، صارخين

مولولين، ملوِّحين بأعلامهم من نوافذ سيَّاراتهم، كأنَّهم عائدون من فتح عكَّا (ردَّ الله غربتها)!

ولا أكرهها متى التزم المغرمون بها بأعراف المجتمع، ومتى ما تحلوا بأصول الذوق والكياسة، وتجنبوا إزعاج الآخرين، وابتعدوا عن خدش الحياء، وأعطوا للطَّريق حقَّه وأدبه.

وأنا - وغيري أيضًا - لا نحبُّ الكرة عندما يشغف بها هواتها إلى حدِّ الهوس والجنون؛ فتكون - مثلًا - سببًا للغفلة عن أداء واجب، أو عن القيام بمصلحة من مصالح العباد والبلاد، أو سببًا في: الشجار، والخصام، والنِّزاع.

وقد قيل: إنَّ السبب في غرق إحدى السُّفن العربيَّة منذ شهور في البحر الأحمر وموت ركَّابها العائدون من أداء العمرة؛ لأنَّ ربابنتها كانوا مشغولين بمشاهدة مباراة لكرة القدم من خلال التِّلفاز الموجود في إحدى صالات السَّفينة عندما اصطدمت ببعض الشِّعب المرجانيَّة، وأدَّى الحادث إلى غرقها، واستشهاد ركابها (رحمهم الله).

وقيل أيضًا: إنَّ إحدى الانقلابات العسكريَّة الَّتي وقعت في بعض دول أمريكا اللَّاتينيَّة كانت بسبب انشغال أركان الحكم والسِّياسة بحضور مباراة لكرة قدم، فقد استحوذت على عقول القوم هنالك.

وقد تسببت هذه الكرة - منذ نحو ثلاثين عامًا - في نزاع بين دولتين متجاورتين،

هما: (هندوراس، ونيكاراجوا) - على ما أظن - وقد تطوَّر النزاع إلى المجابهة بين جيشيهما!

ولكنَّني - وسواي - لا نكره هذه اللُّعبة الشَّعبيَّة الجميلة إذا ظلَّت في إطارها المرسوم، وحجمها الطَّبيعي، ولم تكن ظاهرة على حساب غيرها من أمور الحياة الجادَّة.

إنَّ الكرة (رياضة) للجسم والذِّهن، ووسيلة للتَّسلية والابتهاج، وليست (ملهاة) على أيَّة حال.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة-العدد (٨٠٦٦)- بتاريخ ٢٤/ ٥/ ١٤١٥هـ.

شيخوخة الوظيفة..

رغبة التَّغيير، أو التَّنقُّل من حال إلى أخرى، هي إحدى طبائع النُّفوس والحياة، وقديمًا قال شاعر عربي: «تنقَّلْ فلذات الهوى في التَّنقُّلِ»، وقال آخر: «إنِّي رأيتُ ركود الماء يفسده»!

ذلك أنَّ الدَّيمومة على حال مدعاة للملل والسَّأم، وفتور الهمَّة، وتراخي الأداء وربَّما إلى ذبول حيويَّة الذهن، أو تبلُّده!

والوظيفة بل الموظَّف أنموذجٌ حيٌّ لتلك الطبائع والنُّفوس؛ فكلما طال به المكث في وظيفة بعينها ازداد تململه وتملُّله، وخفَّ نشاطه، وتضاءل عطاؤه، وقد يظلُّ دائرًا في حلقة جوفاء من الرَّتابة، لا يعرف لها رأسًا ولا قدمًا!

وبعبارة أوضح: إنَّ الموظف يشيخ وظيفيًّا كما يشيخ عمرًا!

وفي ظنِّي أنَّ بقاء الموظَّف في وظيفته أمدًا طويلًا - لا سيما إذا كانت هذه الوظيفة قياديَّة وذات مسؤوليَّة عليا - هو بقاء يستهلك طاقته، ويئد في نفسه الحماسة ورغبة الإنتاج، ويجعله يكرِّر نفسه؛ إذ أنه لم يعد لديه جديد يمكنه تقديمه لتطوير العمل، أو أداء الواجب كما هو متوخَّى.

وعلى هذا فإننا نقول: إنَّ مثل هذا الموظَّف - إن كان على عتبة التقاعد - فالأولى له أن يخلد إلى الراحة، وأن يعطي نفسه حقها، وقد يكون في تقاعده بداية حياة جديدة كريمة، وليس مناسبًا في نظري أن تمدَّد خدمته الوظيفيَّة، أو أن يرتبط معه

بعقد من جديد، إلَّا إذا كان ممَّن تتطلَّب الضَّرورة - فعلًا لا مجاملة - بقاءه؛ لندرة خبرته، أو اختصاصه العلمي، وتعذُّر إحلال سعوديٍّ آخر محلَّه.

والواقع أن تمديد الخدمة للموظَّف بعد بلوغه السِّنَّ النِّظاميَّة للتَّقاعد قد خفَّ كثيرًا عن ذي قبل، وقد كان لمجلِّس الخدمة المدنيَّة أثر ملحوظ في هذا، إلَّا أنَّ الارتباط معه بعقد أصبح شيئًا معتادًا، وكأنَّنا يا بدر (لا رحنا ولا جينا)!

وذلك أمر يجب ألَّا يُتمادى فيه، خاصَّة مع الَّذين لا حاجة ماسَّة إليهم؛ ذلك أن مثل هذا الإجراء يوصد الباب في وجه من يلونهم في التَّسلسل الوظيفي عن التَّقدُّم خطوة إلى الأمام، ومن ثمَّ يوصد أبوابًا متتالية على أجيال أخرى من الموظفين، ويحول - في النهاية - دون بعض حديثي التَّخرج الَّذين ينتظرون دورهم.

وأما من لا يزال بمنأى عن السن النِّظاميَّة للتقاعد، فقد يكون من المناسب ألَّا يظلّ في موقعه، وأن يتحوَّل إلى موقعٍ آخر، يتمكَّن من خلاله من العطاء بصورة أكثر فعالية، وأبعد جدوى، وستجد فيه الوظيفة روحًا متوثبة، ودمًا جديدًا، كما أنَّه سيجدد حيويَّته النَّاعسة، ويستردُّ أفكاره الشَّاردة، بل سيتمرَّس على أساليب جديدة في العمل، وسيتعامل مع أنماط أخرى من النَّاس، وبهذا يثري تجربته الإداريَّة.

ولقد جالت هذه السوَّانح بخاطري، وأنا أستعيد بالفكر الأمر الملكي الصَّادر منذ عام، والقاضي ألَّا تزيد مدة شغل من يعين بمرتبة وزير، أو بالمرتبة الممتازة لمرتبته أكثر من أربع سنوات، وهو أمرٌ قوبل بالتَّرحيب من الجميع؛ لأنَّه ذو مغزى، ينمُّ عن حكمة، ومن شأنه أن يرفع كفاءة العمل في أجهزة الدَّولة العليا، ويجنبها

الجمود والرُّكود، ويتيح فرصًا لجيل آخر من الكفاءات الوطنيَّة؛ لتؤدي دورها كما تريده لها قيادتها الحكيمة.

إنَّ هذا المسلك في التَّغيير الوظيفي مسلكٌ مألوف في كثير من الدُّول المتقدمة، وهو ليس بدعًا في تاريخنا الإسلامي المجيد، وهناك شواهد عليه، ولعلَّ من أقربها إلى الذهن: ما اتخذه الخليفة العظيم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما نحَّى القائد البطل خالد بن الوليد وهو في أوج انتصاراته عن قيادة الجيوش الَّتي تقاتل الرُّوم وتنتصر عليهم بقيادته المحنَّكة - معركة معركة -، وما كان من (أبي سلمان) إلَّا أن تقبَّل الأمر بصدرٍ رحب، وبروح المجاهد الصَّادق، فأصبح جنديًّا تحت إمرة القائد الجديد!

صديق ولكن

رحم الله شاعر العرب الأوّل (أبا الطيِّب المتنبي)، القائل:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَـرجُ سـابحٍ وخيـرُ صديقٍ فـي الزَّمـان كتابُ

ولأن هـذا الـرَّأي بحاجـة إلـى تزكيَّـة مـن قـارئ، أو تأكيد مـن شـاهد، فالكتاب ما زال - إلـى حـدٍّ مـا - متعة العقـل، والروح، والوجـدان، على الرغم من شـيوع المذياع، والمرنـاة، والصَّحيفـة، والمنبر، والأنديـة العلميَّة، والأدبيَّة وسـواها.

قلـت هـذا، وأنا أدلف إلـى إحـدى المكتبات الَّتـي ألفـتُ زيارتها، والاسـتئناس - أحيانًـا - بأحاديـث صاحبهـا الحبيـب الَّذي كان للحديـث معه - ذات مـرة - حصيلة لا بـأس أن أشـرك غيرنا فـي بعضها.

ومـؤدَّى بعـض الحديث أنَّه قد تسـتبد الحيـرة بهواة القـراءة وراغبـي الاطِّلاع على مـا جـدَّ فـي سـوق الكتب مـن مؤلَّفـات، وذلـك عندمـا يجـدون أنفسـهم وسـط مكتبة تجاريَّـة زاخـرة بـآلاف الكتـب - محليَّـة ومسـتوردة - فلا يـدرون كيف يختـارون، ولا مـاذا يختارون؟!

وتشـتدُّ الحيـرة عندما يكون هناك معـرض للكتب يضمُّ عشـرات، أو مئات من دور النَّشـر، جاءت من شـتَّى أرجاء الوطن العربي؛ لعـرض بضائعها.

وقد يغري أو يخدع عنوان، أو عناوين براقة - وما أكثرها! - أحد المهتمِّين، فيدفع الثمن مرغمًا راضيًا في آن، وغالبًا ما ينوء بالثمن كاهل من أدركته حرفة القراءة واقتناء الكتب من متوسِّطي الحال، حتَّى إذا تطلَّع هذا الشَّاري إلى سويعاتٍ من القراءة جميلة، وأراد أن يستمتع بما في الكتاب، ويستفيد ممَّا حواه، فإذا به أمام خيبة أمل بالمؤلف وكتابه؛ لرداءة الأداء، أو لضحالة المضمون، وسطحيَّة الفكرة، أو لتكرار الموضوع، أو تكلفه بصورة توحي بأنَّ وراء الأمر استرزاقًا ومغنمًا، وبعبارةٍ أخرى: فإنَّ القيمة المعنويَّة للكتاب ليست سوى الغثاء الَّذي يشبه غثاء السيل، على أنَّ غثاء السيل لا يعدم من فائدة للأرض عندما يحمل إليها أسباب الخصب، فيجدد من حيويتها، وأما غثاء الفكر فلا يحمل إلَّا الخواء، ولا يبعث إلَّا على تعطيل طاقة الذهن.

وممَّا يلفت النَّظر أنَّ بعض مرتادي هذه (المكتبات، أو المعارض) يؤمُّونها للوجاهة؛ فلا يعنيهم من الكتاب محتواه، ولا تشغل دسامته أو غثاثته لهم بالًا، فالمهم أن ينصرفوا من المكان أمام النَّاظرين، وهم يحملون أسفارًا؛ ليملوا بها زخرفة منازلهم؛ فالبيت الحديث لا بد له من مكتبة، ولو كانت من (كراتين)!

إذن أعود فأقول: إنَّ مثل تلك الكتب تحمل عناوين أكبر من مضامينها، وإنَّ مضامين بعضها أقل من قيمة الورق المطبوعة عليه، وكذلك الحال بالنِّسبة إلى كثيرٍ من المجلَّات، لا سيَّما المجلَّات الوافدة؛ إنَّها ذات أشكال لامعة خلَّابة، وألوان

أرجوانيَّة، و(كرنفاليَّة) جذابة، ورقها من أجود الأنواع وأثمنها، وهذا هو كل نصيب مبتاعها، كأنَّما هي تلك المدارس الَّتي عناها الشَّاعر (خير الدين الزركلي) بقوله:

ومدارس ما كان ينـ ـقص حسنهنَّ سوى العلوم

ولا شكَّ أنَّ حماية الفكر من غثائه مطلب ثقافي، ولهذا يؤسِف القارئ المثقَّف حقًّا أن يُجري (تقييم) مثل تلك الكتب سوقيًّا، بعيدًا عن تقويمها أدبيًّا، ممَّا يكاد معه (الكتاب، أو الإنسان)، أن يُعرِّض صداقته الأزليَّة المطلقة للآخر إلى شيءٍ من الجفاء.[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة-العدد (٨٠٨٠)- بتاريخ ٩/ ٦/ ١٤١٥هـ.

الدُّستور ألعوبة الأمم المتخلِّفة!

كلمة «الدُّستور» - على ما أعلم - غير عربيَّة؛ فليس لها أساس في معاجم لغتنا، وأصلها - على الأغلب - فارسي، وتعني: (القانون الأم)، وقد استعارتها معظم الأقطار العربيَّة؛ لتطلقها على مدلول النِّظام الأساسي للحكم فيها، وهذا المصطلح الأخير هو الأقرب إلى المفهوم القانوني المقصود في اللُّغة العربيَّة، وهو ما أخذ به المنظِّم في بلادنا.

وليس ما قدمناه هو جوهر مقالنَا هذا، ولكنَّه مدخل للمقال، دعت إليه مناسبة الحديث عن الدستور كألعوبة في (معظم) البلدان الَّتي اصطلح الغربيون على وصفها بالدُّول النَّامية، أي: الآخذة بأسباب النُّمو - وهو تعبير مهذَّبٌ نوعًا ما - أو بالعالم الثَّالث، أي: العالم الغريب المضطرب!

إنَّ الدستور في أكثر هذه الدُّول - مع الأسف - ليس سوى مجرد ألعوبة، أو ملهاة، أو كرة يدحرجها لاعبوها في مضامير الفوضى أمام مشاهديهم، وما مشاهدوهم سوى شعوبهم الَّتي غالبًا ما تكتفي بالتفرج إذا لم يأخذها الوسن!

وهذا هو ذا واقع التَّطبيق العملي، ولمزيدٍ من الإفصاح نقول: إنَّنا في كل يومٍ نسمع عن عبارات فضفاضة طنَّانة، تلوكها الألسن، ووسائل الإعلام هنالك، مثل: أزمة دستوريَّة، تعديلات دستوريَّة، إصلاحات دستوريَّة، وهي أمورٌ تحدث في تلك الدُّول بسرعة زمنيَّة خارقة، ولا يكاد يوجد لها نظير في دول الغرب قطعًا، ولا حتَّى في الدُّول النَّامية الواعية المعتدلة؛ فهذه الدُّول ترى في تعديل الدساتير بتلك الصُّورة أمرًا منافيًا للطبيعة؛ فليس إجراؤه، أو احتيازه ممَّا تهضمه المفاهيم أبدًا.

فنقول: إنَّ الدَّساتير في معظم بلدان العالم الثَّالث - لا سيَّما ذات الأنظمة السِّياسيَّة القلقة - تتغير بسرعة مذهلة، ويتبع تغيرها تغير القوانين المتفرعة عنها طبعًا، ولهذا فقدت هذه الدساتير أهميتها واحترامها لدى أصحابها أنفسهم؛ فهي تستبدل، أو تعدَّل لأتفه الأسباب، وتنحرف عن توجُّهها مع كل انقلابٍ عسكري - مثلًا - أو بتغلب فريق على آخر، أو بتبدل الأمزجة والأهواء!

ويقال: إنَّ دستور بعض هذه الدُّول قد تغير في خلال عشرين عامًا أربع مرات، أي: بمعدل دستور لكل خمس سنوات! حتَّى أصبح مفهوم الدُّستور أشبه بتعليمات يوميَّة يصدرها (شاويش) إلى جنوده! وبعضهم أجرى على دستوره تعديلات عشوائيَّة، ومن ثم عاد؛ ليعدلها، ويصبح الدستور ثوبًا ضمَّ سبعين رقعة، فلم يعد يُعرف به الأصل من الهامش، ولا المتن من الشَّرح، وإنما كان ذلك لغاية في نفس يعقوب وعشيرته، أو حزبه، أو طائفته، أو مجلِّس قيادة ثورته!

والمضحك المبكي أن يقال عن بعض تلك الدول: إنَّها تمارس (الديموقراطيَّة)، وإنَّها تقدم لعالمها النَّامي أنموذجًا وتجربة حيَّة في هذا المجال!

كذلك؛ فإنَّ من المثير للسخرية أن يُطلِق هذا القول دولٌ تمارس الديموقراطيَّة في بلادها حقًّا، تطلقه أمام شعوب الأمم (المتخلِّفة)، وليس أمام شعوبها هي؛ فهي أمام مقتضيات مصالحها تعطي للديمقراطيَّة مفهومًا آخر معاكسًا في وسائل إعلامها الموجهة إلى العالم الآخر المغلوب على أمره، وأما شعوب هذا العالم، النَّامي، الثَّالث فحظها الحقيقي من (الديمقراطيَّة) هو: الهتاف، والتَّصفيق، والبحث عن لقمة العيش، وما أصعبها!

الأثير الملوَّث..

يبذل العالم - في شتَّى أصقاع المعمورة - جهودًا ضخمة ومضنية في سبيل إبقاء البيئة نظيفة، وخالية من كل شوائب التَّعكُّر والتَّلوُّث، سواء أكان في تلوث التَّربة، أو الجو أو مياه البحار، والأنهار، والأودية، ومياه الشرب والري، أو تلوُّث النَّباتات والأغذية، ممَّا هو متَّصل بحياة الإنسان، والحيوان، وسائر الكائنات.

فلقد طغت على الحياة الحديثة أسباب الحضارة الَّتي حملت - إلى جانب منجزاتها الهائلة والمفيدة للرُّقيِّ البشريّ - جوانب أخرى سلبيَّة، نتج عنها أخطار داهمة باتت تهدد الحياة البشريَّة نفسها؛ فالمصانع المتعدِّدة الأشكال والأغراض، وما تنفثه من سموم وميكروبات، وعوام المركبات، والسَّيَّارات، والطائرات، وأدخنة الغاز الطَّبيعي المتصاعدة من آبار النفط، وتسرُّب النفط من النَّاقلات الغارقة في عرض البحار والمحيطات، ومخلَّفات المعامل، وغبار التجارب، والمفاعلات النوويَّة، والتَّصريف الرَّديء لمياه الصَّرف الصحي، وما تتركه من آثارٍ... إلخ ممَّا تلفظه المنشآت، والمرافق الخدميَّة، والبنى التحتيَّة، فكل هذه الأمور جعلت (فجاج الأرض، ومعارج السماء) مشحونةً بصنوف من الأذى والتلوُّث، والآفات، والأوبئة!

وقد تجلَّت تلك الجهود في برامج المنظَّمات الدوليَّة المختصَّة التَّابعة لهيئة الأمم المتحدة، وفي الجهود المنفردة للعديد من الدُّول الَّتي أنشأت أجهزة مختصَّة؛ لمواجهة الخطر الماثل، بل تجلَّى ذلك أيضًا في جهود كثيرٍ من المؤسَّسات التَّعاونيَّة التَّطوعيَّة الخيريَّة.

ولا مراء أنَّ ذلك قد كلَّف خزائن العالم أموالًا طائلة جدًّا، واستنزف جوانب كبيرة من الطاقة البشريَّة، وهي تكاليف كان الأولى بها أن توجَّه في الأصل إلى جوانب: التَّنمية، والإنتاج، ومكافحة الفقر، والجوع، والأميَّة.

ونحسب أنَّ هذا العالم جدير بأن يسيطر على المشكلة مستقبلًا خاصَّةً أنَّ هناك توجُّهًا وإجماعًا على ضرورة محاربتها، إلَّا أنَّ هذا النَّوع المحسوس من التَّلوُّث لم يعد الوحيد الَّذي يستوجب المواجهة؛ فقد بدأت تلوح في الأفق سحائب تلوث آخر، وهو ما عنيته بعنوان مقالَتي هذه؛ تلوثٌ أخذ في نهش الأذهان، ويُخشى أن يُخالط العقول! وهو يبدو - أكثر ما يبدو - فيما يُسمى بـ (العالم الثَّالث)، الَّذي فُرض علينا - نحن العرب - أن ننتمي إليه، وأقصد به اختلاط المفاهيم، والأفكار، والمعتقدات، وهو لا يقلُّ خطرًا عن التلوُّث الأوَّل الَّذي تضافر العالم على حربه بكلِّ قواه ووسائله.

لقد أصبح الأثير العربي - اليوم - مباءةً للهرج، والمين، والعويل، والصراخ، والغوغائيَّة، وانحراف اللسان، وخلط الأمور، والتشكيك في: الثوابت، والحقائق، والتَّاريخ المتفق عليه، بل أصبح هذا الأثير مجالًا للاستخفاف بالرَّأي السَّليم، وبالتَّوجُّه العقلاني!

فافتح جهاز التلفاز - مثلًا - وتابع بعض القنوات الفضائيَّة، ولتكن القنوات العربيَّة على وجه الخصوص، فلعلَّك وأنت تستمع إلى ما في كثيرٍ منها من أحاديث مرتجلة في السِّياسة، وأحداث السَّاعة، وإلى ما فيها من: ندوات، ومناقشات، ومحاورات، وما يتخللها من: تعليقات، وردود، وجدل، وإثارة، واستفزاز، لعلك مدرك لمدى ما يسهم به هذا اللَّغو في زيادة شقة الخلاف، والتَّنافر، وإذكاء أوار (الضَّغينة، والحقد،

والفتنة) بين أبناء الأمَّة الواحدة، بل بين أبناء الوطن الواحد، ومدرك أيضًا أنَّ بإمكان كل فاتح فمٍ أن يكون محلِّلًا سياسيًّا، ومفكرًا وطنيًّا، وباحثًا في قضايا الحريَّات، وخبيرًا في الشؤون العربيَّة، والصُّهيونيَّة، والأمريكيَّة وغيرها! بل أصبح في ميسوره أن ينصب من نفسه حكمًا في كل قضيَّة؛ فلا رقيب، ولا وازع! وليس للمشاهد حسبان في وجدانه؛ فهو - دائمًا - (متفوقٌ) في التَّنظير (البيزنطي)!

وبتعبيرٍ آخر؛ فإنك ستجد (دولة صوت العرب) قد عادت من جديد، بيد أنَّها تجيء اليوم من كلِّ حدبٍ، ومخبأ، ونحلة؛ فهي حرباء تتحكَّم في تلونها (الطائفيَّة، والعرقيَّة، والإقليميَّة(وما شئت من أطياف الخبث! وهذه أمور ما كانت تخطر على بال أحد بالأمس القريب، ولم يكن يرقص على أوتارها سوى أعدائنا الَّذين دأبوا على التَّخطيط لها على حين غفلة منَّا!

وإذا كان هذا التَّلوُّث الإعلامي قد أسهم - من قبل - في بعض هزائمنا (السِّياسيَّة، والعسكريَّة، والثَّقافيَّة) - سواء اعترفنا بهذا أم لم نعترف - فعسى أن يكون لنا في ذلك درس، وعبرة، وعظة؛ فالفوضى (الفكريَّة، أو الإعلاميَّة) لا يمكن أن تتيح للرأي النَّاصح البصير فرصة ليقول ما لديه، بل ستجعله تائهًا مقموعًا مقهورًا.

فهل العرب واعون لهذا التَّلوُّث الَّذي بات يملأ أسماعهم؟ وهل يتدارك الحكماء والعقلاء منهم هذه الحال قبل فوات الأوان؟[1]

❁❁❁

(١) نشرت في المجلَّة العربيَّة- العدد (٣٤٤)- رمضان، ١٤٢٦هـ.

نحن والذِّكرى..

في مثل هذا اليوم - منذ مئة عام خلت - افترَّ ثغر الزَّمن باسمًا مبتهجًا؛ ليعلن ولادة عهد جديد، طالما ترقبته النُّفوس، فكان دخول (الفتى) عبد العزيز الرِّياض واستيلاؤه على عرين آبائه وأجداده؛ إيذانًا ببزوغ فجر من الأمان، والاستقرار، والرخاء، ولمّ الشَّمل، وذلك بعد أن كانت عواتي (الفتن، والفوضى، والضِّيق) تغشى حياة النَّاس وتستبدُّ بشؤونهم ومعايشهم.

فكيف كنَّا؟! وكيف أصبحنا؟!

إنَّه لحديث لا تمله المجالس والروايات، ولا يستنكف عنه اليراع والتَّاريخ!

وإنَّها لأحداث تشبه الأخيلة والأساطير، ولا تكاد تفارق ذاكرة الأُمَّة والأيَّام!

وإنَّها لعقد من الفرائد والأوابد، تدعو إلى الاتعاظ والاعتبار، وتحمل في ثناياها موجبات الحمد والشكر!

وكانت العقبى كريمة بفضل الله.

لقد بدأ عبد العزيز - رَحِمَهُ اللهُ - دولته بعدد قليل من الرجال؛ من أهله وأتباعه المخلصين، وانتهى بها إلى هذا الكيان الواسع الأشم الزاخر بأسباب الخير والقوة، وكما بدأ حكمه بعدد لا يتجاوز الستين، وانتهى به إلى هذا العدد الجم من الملايين؛

بـدأه باحتلال (قصر المصمـك)، وانتهت به الحال والطموح إلـى دولة باذخة العز، شـامخة الـذرى، مديـدة الأرجـاء، تُضفـي بجناحيهـا الخافقين علـى شـواطئ البحرين (شـرقًا، وغربًـا)، وتحتضن السَّـواد الأعظم من جزيـرة العرب.

لفقـد صَدَقَ عبـد العزيز ربَّه في السرِّ والعلن، وصدقـت منه النيَّـة والغاية؛ فأوصله الـرأي الصَّائـب والعزيمة الصَّارمة إلى تحقيق وطره، وإرسـاء هـذه الوحدة (الأنموذج) في تاريخ العـرب المعاصر.

ومـع أنَّ الحديـث لا يُمل؛ فلا نودُّ أن نكـرر هنا أحاديث أسـلافنا الأقربين، حول ما عاصـروه مـن أحداث، وما عايشـوه من حلو الأيَّام ومرهـا، بل وما كانـوا يعانون - قبيل انطلاقـة عبـد العزيـز - من شـظف العيـش، واضطـراب الأمور، كمـا لا نودُّ أن نسـتعيد مـا حـكاه التَّاريـخ، ومـا دوّنـه المؤرخـون عـن تلـك الفتـرة الحالكـة الَّتي سـبقت وثبة عبـد العزيـز، وعن تلك الأيَّـام الَّتي تلت فتـح الرِّياض، ومـا أعقبها من مغـازٍ وفتوحاتٍ وأمجـادٍ، وعن عبقريَّة الملك المؤسِّـس، وسياسـته وبُعْـد نظره، فهذه كلهـا أمور يعرفها الصغير والكبير، والقاصي والدَّاني، وقد سـجلها أولئـك النفر النخبة من مدوني تاريخنا الحديـث، وكذلـك بعـض الشُّـعراء والرَّحالين، ونشـير فـي هـذا الصَّدد - على سـبيل المثـال - إلـى كل مـن: أمين الريحانـي، وعبد اللـه فلبي، وفـؤاد حمزة، وحافـظ وهبة، وخيـر الدِّيـن الزَّركلي، ومنيـر العجلاني، ود. عبد اللـه بن صالح العثيميـن، ومُحَمَّد بن عبـد اللـه بن عثيميـن، وأحمد بـن إبراهيـم الغـزاوي، وبولس سـلامة؛ حيـث إنَّ كتبهم

ودواوينهم تعدُّ مراجعَ وافية لعهد الملك عبد العزيز؛ يستفيد منها المواطن العادي بلهف المثقَّف، ويرجع إليها المستزيد والباحث.

وتلك الأحداث تحفظها الذَّاكرة ولا تنساها، ولعلَّ الجيل الجديد اليوم يعيها حق وعيها؛ فيفيد منها نفسه وتجاربه، ووطنه، وذلك بعد أن يتمعَّن فيما هي عليه حالته الحاضرة من رغدٍ واستقرارٍ، فيقدر ذلك حق التقدير، ويُرَسِّخ هذه النعماء، وصيانتها من العبث بما هي خليقة به، ومواصلة الدَّرب نحو ما هو أفضل وأسعد إن شاء الله.

إنَّ شبابنا اليوم مدعو إلى التَّبصُّر في حقيقة حاضر بلاده، واستيعاب هذا الحاضر بعد أن يسترجع الذكرى في ماضي البلاد القريب، فيحمد الله أولًا على هذا الاطمئنان والرفاه، وينصرف ثانيًا إلى استغلال ما بين يديه من أسبابٍ، وإمكاناتٍ؛ لدعم أسس البناء الوطني الَّذي أقامه عبد العزيز ورجاله من أجل استشراف غدٍ كريم أمثل، يليق بهذه البلاد ومكانتها، وبالرسالة الَّتي تحملها، والَّتي شرَّفها الله بها.

وإنَّنا في هذه المناسبة الوطنيَّة المباركة مطالبون باستشعار الرُّوح الوطنيَّة في كل تصرفاتنا، وبتغليب المصلحة العامَّة على الخاصَّة- على سبيل المثال - وبأن نسمو فوق الذَّاتيَّة المنغلقة، والإقليميَّة الضيِّقة؛ فالأخطار لا ترحم، والحاقدون والموتورون لا يسرهم ما نحن فيه من استقرارٍ ويسرٍ.

وليست المواطنة مجرد شعار يُرفع، أو كلام يحكى! وإنَّما هي انتماء صادق

بالقلب، والوجدان، والفكر، فضلًا عن رابطة النَّشأة، ووشيجة الأرومة، هي عملٌ صالح دؤوب، يضع المصالح العليا للوطن والمواطن في الاعتبار الأول، وفوق ما سواها.

إنَّ هذا الوطن بكياناته الهزيلة الَّتي كانت قائمة، وأقاليمه المترامية الأطراف، وقبائله الَّتي كانت بالأمس متنافرة متناهبة، وما كان فيه من تشتت العادات واللَّهجات، ومن جهل يضرب أطنابه في ركن منه، وما يحيط بكلِّ هذا ويكتنفه من مشارب، وأهواء، ونزاعات، إنَّ هذا الوطن ما كان له أن يتَّحد وينضوي تحت راية واحدة إلَّا بفضل الله ومن ثمَّ بفضل ذلك الكفاح المعجزة الَّذي قاد زمامه البطل عبد العزيز، حتَّى أصبح في غضون ثلاثين عامًا وطنًا موحدًا منيعًا في ظل دولةٍ عظيمةٍ، أقامها عبد العزيز على نهج صريح، من: الدين، والأخلاق، والمعاني السَّاميَّة، فنهض هذا الكيان شامخًا مشمخرًّا في علياء المجد، وهامة التَّاريخ، وثمَّ أعقب ملحمة الكفاح والتَّوحيد صنوف من البناء الحضاري في شتَّى مجالات التَّنمية، وقد ظلَّ عطاؤها يتواصل، وسيظل كذلك ثرًّا سخيًا إن شاء الله.

ومن هنا نتساءل، أليس هذا الوطن جديرًا بأن يحل السويداء من قلوبنا؟ وأن يستأثر بحبِّنا وولائنا؟ وأن نذب عن حياضه بكلِّ ما نستطيع؟ وأن تأخذنا الغيرة له تجاه ما يمس ثراه الطيِّب، أو ينال من مكانته ومقدراته؟

أليست هذه المسؤوليَّة الوطنيَّة هي ما يجب أن يحملها كل واحد منا، وما يجب أن يعدّها أولى مهامّه؟!

ويدخل في هذا الباب من المسؤوليَّة: الحفاظ على ما يختزنه مجتمعنا بعراقته

وأصالته من قيمٍ، وموروثاتٍ حميدة، يحملها الوطن في طيَّات تاريخه، وكذلك إحياء ما اندثر منها؛ نتيجة الانبهار بمظاهر الحضارة الحديثة الوافدة، ومن ثم التَّعامل مع هذه وتلك في ضوء مقتضيات العصر الإيجابيَّة، وما توجبه خصوصياتنا من الأخذ بالمناسب، ونبذ الطالح منها.

ومثل هذا الحفاظ على ما تحت أيدينا من أموال خاصَّة، أو عامَّة، ومنشآتٍ، ومرافقَ، ومشروعاتٍ خدميَّة؛ فهذا أيضًا في الصميم من مفهوم المواطنة الصَّالحة، وما لم نحافظ على مثل هذه المنجزات والمعطيات - كما لو كانت شأنًا خاصًا بكلِّ فرد منا - لما كان للوطن أن ينهض وأن ينمو، ويتطور؛ فالولاء للحق العام والمصالح المشتركة ولاء وطني بالدرجة الأولى، ونزاهة الضَّمير واليد، وصدق الأداء في العمل والتَّعامل، والنَّأي عن استغلال النُّفوذ والوظيفة، وألَّا تسلك في جيبك ما لم يحله الله لك، وأن تكون لقمة عيشك من سعيك الطيب، وعرق جبينك، وعدم مماألأة الفاسدين والعابثين بالنِّظام، ونحو هذا ممَّا يُسبب حفاظًا على قيمنا، هو في حقيقته حفاظ على ثروة الوطن، ومقدراته، وصون لهما، وضمان لنجاح أعمالنا، واستقامة أمورنا.

ولقد وفَّق الله هذه الدَّولة في عهد عبد العزيز، وعهد خلفائه من بعده، فأعطت الكثير الكثير من منجزات الخير والنماء في شتَّى الميادين، ممَّا هو معلوم لكل أحد.

ومن واجبنا تثمين هذا العطاء؛ وذلك بأن نرعى هذا الكيان بما هو أهله، فنذود

عنه، وعن قيمه (قولًا، وفكرًا، وعملًا) ونستشعر الغيرة دائمًا على سمعته ومصالحه، ونشد على مكتسباتنا الوطنيَّة (بأمانة، وإخلاص، وصدق).

وإنَّ هذه الذكرى الَّتي تمرُّ بنا اليوم تحمل معها أصدق الدُّروس، وأجلَّ العبر، وهي حَريَّة بأن تكون حافزًا قويًّا لنا على مضاعفة الجهود وتكريس العلم الجاد المخلص لخير هذه البلاد، كما أنَّها قمينة بأن تبعث وتعزِّز في كل نفسٍ معاني (الإكبار، والإعزاز) لرجلٍ عظيمٍ من رجالات العصر، ومن عباقرته الأفذاذ، صانع تاريخنا الحديث، وباعث أمجادنا الأثيلة، الملك الخالد في القلوب/ عبد العزيز، طيَّب اللهُ ثراه[1].

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾،[2]

❁❁❁

---

(١) نشرت في العدد الخاص من مجلَّة اليمامة، بمناسبة الذكرى المئويَّة لتأسيس المملكة - ذي الرقم (١٥٤٠)- بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٤١٩هـ.

(٢) سورة التوبة: ١٠٥.

في يومنا الوطني..

لـم يكن قـد انقضى سـوى بضع سـنوات - عد إطلالة القـرن الهجـري المنصرم - حتَّـى كانـت الدَّولـة السُّـعوديَّة الثَّانية قد أفـل نجمها، ولجأ آخـر أئمتها - وهـو الإمام/ عبـد الرَّحمـن بـن فيصل مـع أفراد أسـرته، ومنهم ابنـه عبد العزيـز إلى الكويـت، ولكن حيـاة المنفـي ظلَّـت تُذكـي في عبـد العزيـز طموحـه الغريـزي المشـبوب، وتدفعه إلى التَّطلُّـع نحـو أرضـهِ وأرض آبائـه، وتثير فيـه كوامن الرَّغبة في اسـتعادة مجـد دولته.

وهكـذا بـدأت محاولـة عبـد العزيز الأولى عـام (١٣١٨هـ)، أثناء وقعـة الصريف بيـن كل مـن: ابن صباح، وابن رشـيد؛ وذلك بدخـول عبد العزيز الرِّيـاض، بيد أنَّ الحظَّ قـد عثـر بـه هذه المـرَّة؛ فلم يُقدَّر لـه البقاء بهـا طويـلًا، إلَّا أنَّ اليأس ليس مـن طبع ذوي الإرادات الصَّلبـة؛ فأعـاد الشَّـاب الكرَّة ثانية فـي العالم التَّالـي؛ فإمَّا أن يحتـلَّ الرِّياض، وإمـا أن يموت فـداء لها.

ولقـد خـرج الفتى عبد العزيـز من الكويـت مع رفاقه، يحـدون نجائبهم فـي عزيمةٍ وإصـرارٍ؛ يقطعـون صياهـد الصمَّـان، ويطوون مفـاوز الدَّهنـاء، وكأنَّما لسـان حدائهم، فـي غبـش اللَّيـل، وصقيع برده، قول الشَّـاعر/ بولس سـلامة - الَّذي جاء مـن بعد - في ملحمتـه العظيمة (عيـد الرِّياض):

أبشـــري يا جزيرةَ العُـــربِ فالموْ ... لودُ صبـــحُ الرَّجاءِ، غـــبَّ اعتكارهْ
يطلـــعُ الفجر أشـــقرًا من ســـجايا ... هُ، وغيـــد الـــرُّؤى بناتُ اســـمرارهْ

سيكون اللَّيثَ الَّذي ترجفُ (الدَّهـ ... ـناءُ) و(الجوفُ) من صدى تزآرهْ
سيكون البيض الرِّقاق نداما ... هُ، وزرقُ النصول في سُمَّارهْ
حرمٌ غابُهُ على مبتغيه ... فِطول الرماح في أشجارهْ
وشواظُ البنادق السُّمرِ أفوا ... هُ المنايا، تكون في أثمارهْ
تتحامَى العُقابُ أجواءَه الحرَّ ... ى، فرارًا من وَقدهِ وبُخارهْ
غابهُ (نجدٌ) و(الحسا) و(عسيرُ) ... وقفارُ الحجاز أدنى قفارهْ

إن عبد العزيز مشى مسيرة المجد الخالدة، وكان اعتماده على الله أولاً، ومن ثَّم على نفسه، ورفاقه الأوفياء رموز التضحية والفداء.

وكانت (ليلة المصمك) - أو ذبحة عجلان - أشبه بأسطورة من أساطير الزَّمان، حيث أن التَّاريخ ذُهل لها حقًّا، وقد كانت بدايةً لعهدٍ وطني جديد، ومنطلقًا لبناء الدَّولة (الأنموذج) للوحدة العربيَّة؛ دولة تمتدُّ من مشارف الشَّام حتَّى تخوم حضرموت، وتحتضن البحر شرقًا وغربًا.

إنَّ هذا الكيان الفسيح الأشم، لم يكتمل صرحهُ إلَّا بعد ملاحم طاحنة فاصلة من ملاحم (الوحدة، والتَّوحيد)، وبعد التَّصدِّي بحزمٍ وقوَّةٍ للاضطرابات، والفتن الَّتي أثار غبارها المنافسون، والمناوئون، والطامعون.

وفي غضون ثلث قرن، كان الأمن والاستقرار قد ملأ النُّفوس، مثلما ملأ الربوع، وكانت المَملكَة العربيَّة السُّعوديَّة تقف بشموخٍ على هام الدَّهر؛ دولة راسية الأركان،

نائفة المكانة، راعية لمقدَّسات المسلمين، لها وزنها (العربي، والإسلامي، والدولي)، وفتح الله خزائن الأرض لأبنائها سخاءً رخاءً.

ومن البديهي أن يأخذ الإنسان السُّعودي في قطف الثمار؛ لقد عمرت الأرض، حرثًا، وزرعًا، وسكنًا، وانتشر موكب العلم حثيثًا كالبرق، وشقَّت الطُّرق العملاقة القفار، وأقيمت وسائل الاتصال الحديث المتلاحق، ووصلت الكهرباء إلى شعف الجبال، وانسابت مياه البحر - عذبةً سائغةً - إلى داخل البلاد، ونعم هذا الإنسان بالرعاية الصحيَّة والاجتماعيَّة، وتحوَّلت المدن الصغيرة - وكلُّ مدننا كانت صغيرة جدًّا - إلى عواصم كبرى تضارعُ أرقى عواصم الدُّنيا، وأصبح سُكَّان المدينة يُسبون بالملايين، كما تحوَّلت القرى والهجر الكالحة البائسة إلى مدنٍ جميلةٍ تتوفَّر بها معظم أسباب الحياة الحديثة.

ولا أريد الاسترسال في تعداد أوجه التَّطوُّر؛ باعتبارها معروفة، والحديث عنها يُعدُّ من نافلة القول، ولأنَّ في خطط التَّنمية المتواترة منذ نحو ثلاثين عامًا خير ترجمان لها، وكل هذه حدثت في فترةٍ لا تكاد تذكر بمعايير التَّاريخ، كما أنَّ كل هذا لم يُنسِ البلاد أصالتها، ولم يستلّها من جذورها، ويصرفها عن ثوابتها؛ فالقرآن الكريم دستورها، والشريعة محتكمها، ولقد جمعت بين الحسنيين، وواءمت بين العراقة والمعاصرة، فكان لها من هذا نسيجٌ قويٌ فريدٌ؛ يسرُّ المحب، ويغيظ الموتور.

وإنَّ اليومَ الوطنيَّ الَّذي تمرُّ بنا ذكراه - في مثل هذا الوقت من كل عام - ليس

إلَّا تتويجًا عظيمًا لجهادٍ فذ عظيم، عاشه هذا الكيان الكبير منذ بداية تأسيسه، وتأكيدًا لتلاحم متواصل متين بين أبناء هذا الوطن حكامًا ومحكومين.

واليوم ماذا لو أنَّ عبد العزيز - طيَّب الله ثراه - أطلَّ علينا بعد نحو مائة عامٍ من (ليلة المصمك)، وأبصر ما عليه الحال اليوم؟

إنَّه سيخر ساجدًا لله على نعمائه.[1]

❁❁❁

(١) نشرت في: «جريدة الرِّياض» - العدد (١٠٣١٨) - بتاريخ ١١/ ٥/ ١٤١٧هـ.

عن الصَّحافة

يكاد يتَّفق المتابعون على أنَّ الصَّحافة - أو العمل في الصَّحافة - ليس مجردَ دراسةٍ منهجيَّةٍ تجعل من صاحبه نجمًا صحفيًّا لامعًا فحسب، وإنَّما العمل الصَّحفي هواية ذاتيَّة، ومهنيَّة قبل أيِّ شيءٍ، ولهذا نجد أن أكثر المبرزين والنَّاجحين في الميدان الصَّحفي هم من غير ذوي الاختصاصات الأكاديميَّة الإعلاميَّة، بل إنَّ بعض هؤلاء النَّاجحين لا يملكون إلَّا شهادات (متواضعة) لا تصل - على أيَّة حال - إلى المستوى الجامعي، وبعضهم تخرج أيضاً من كليَّاتٍ لا علاقة لها بالصَّحافة، أو بالإعلام عمومًا، مثل: كليات الطب، أو الهندسة، أو طب الأسنان أيضًا، وقد صاروا - من خلال المهنة - ملء أسماع القرَّاء وأبصارهم، فيما يقدِّمونه، ويكتبونه على مائدة الرَّأي والتَّوجيه، وبعضهم أشاد (دورًا) صحيفة شامخة ينضوي تحت لوائها عدد من: الصُّحف اليوميَّة، والأسبوعيَّة، والمجلَّات المتخصِّصة، والكتب الدوريَّة؛ فكانوا بحث (فرسانٍ) في هذا المجال.

وإنَّ تاريخ الصَّحافة - على مدى عمره - حافلٌ بشتَّى الشواهد والأمثلة، كما أنَّ تاريخ صحافتنا السُّعوديَّة أيضًا يشهد بهذا، ولكن بالمقابل فإنَّنا نجد كثيرين من خرِّيجي الدِّراسات الإعلاميَّة المنهجيَّة قد عزفوا عن ولوج باب (المهنة) الَّتي كرَّسوا جهدهم وحياتهم الدِّراسيَّة لممارستها ومواجهتها، وانكفأوا - في أسفٍ - عنها إلى أجواء ومجالات لا علاقة بهذا الاختصاص في قبيل، أو دبير، بل إنَّ بعضهم آلت به الحال إلى عمل (كتابي) رتيب في مصلحة، أو وزارة لا صلة لها بالعمل الإعلامي وفروعه.

وقد يكون لبعضهم العذر، بسببٍ من مجريات الظروف الَّتي لم تخدمهم، وهذا أمر وارد، وقد تكون الوفرة الزائدة عن الحاجة في أعداد الخرِّيجين المختصين في هذا المجال قد أحدثت شيئًا من الكساد المهني؛ أسوةً بغيرهم من متخرِّجي بعض الاختصاصات الأخرى، وهذه ظاهرة تدعو إلى التَّأمل، وإعادة النَّظر في التَّعليم الجامعي؛ ليصبح متوائمًا مع متطلَّبات التَّنمية.

على أنَّي لا أهوِّن من شأن الاختصاص في مجال الصَّحافة أو غيرها من فروع الإعلام الأخرى، بل أعتقد أنَّه ضروري جدًّا، ولكن يجب أن يكون بقدر.

ولا أحد يشكُّ أبدًا أنَّه إذا اجتمع الأمران - الاختصاص والهواية - فالأمر عندئذ نورٌ على نور، وأحسب أنَّ كثيرين من الإخوة المختصين في مجال الدِّراسات الإعلاميَّة يشاطرونني الرَّأي في ذلك، وقد يختلفون معي في تفاصيله.

وإذا كانت الصَّحافة هواية واختصاصًا فهي أيضًا ثقافةٌ عاليةٌ متميِّزةٌ، ذات مشارب وجوانب متعدِّدة.

والثَّقافة - كما نعلم - ليست شهادة مسطورةً، ولكنَّها مخزونٌ معرفيٌّ لجهدٍ ذاتي بالدَّرجة الأولى، ولا مندوحة لأيِّ صحفي من أن يكون نصيبه منها جمًّا غزيرًا؛ ليدفع عن عمله مظِنَّة السَّطحيَّة، والضَّحالة أمام قارئيه!![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٨٠١٧)- في ٥/ ٤/ ١٤١٥هـ.

عندما يخطئ النَّقد سبيله

النَّقد أو التَّنبيه إلى الخطأ مطلبٌ اجتماعيٌّ يجب ألَّا تضيق به صدورنا، أو تنفر منه طباعنا، وقد قال فاروق الأُمَّة/ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا)، إنَّ هذا الخليفة - المعروف بقوته وعدله - يؤكِّد على أنه بشرٌ، وأنَّ «كل ابن آدم خطَّاء»، وأن العيب لا تخلو منه نفس، ولهذا فمصارحة المخطئ بالخطأ (هدية)؛ لأن التعبير بلفظة (أهدى) هنا ذو مغزى خاص؛ فالهديَّة لا تأتي من عدو، أو حاقد، وإنما من محبٍّ مخلص، إنها عربون مودةٍ، وتواصل بين النَّاس، يقبلها الكريم ويأباها غيره.

ولِلنَّقد الصَّادق المخلص أساليبه وطُرُقه؛ فهو - مثلًا - ليس تنفيسًا عن مآرب ذاتيَّة لم تتحقق، ولا تطلُّعًا إلى هدفٍ خاص، ولا تعبيرًا عن شعورٍ فاسد، ولا تشهيرًا بالآخرين لغايةٍ في نفس صاحبه كما يفعل الهجَّاؤون، ولا انخداعًا بالظَّواهر، أو انصياعًا وراء أصوات لا تدرك ما تقول، وإنَّما هو رغبةٌ إصلاحيَّةٌ محضةٌ، ومناصحةٌ كريمةٌ تأتي في صورة (هديةٍ) لطيفةٍ، يأنس بها الشَّخص المهداة إليه، فتولِّد في وجدانه استحسانًا، ورضا، وقبولًا.

إنَّ صاحب الهدية - أو النَّاقد - إنسان كريم بطبعه، لا يخدش حياءً، ولا يهين كرامةً، ولا يجحد فضلًا، ولا يتجاهل جهدًا، والعاقل يتقبل الهديَّة بروح الكريم السَّمح فيتحسَّس ما حوله، ويقلب أمره، ولا يثور، أو يكابر، أو يطلق لعواطفه أعنتها.

وإذا كانت النُّفوس والطِّباع لا تألفان النَّقد، أو لا تهضمانه فما ذاك إلَّا لما يحمله بعض أربابه - أحيانًا - من أساليب هجوميَّة تفقده هدفه، وتنحرف به عن دربه، وتصرفه عن الجديَّة الموضوعيَّة إلى المظهريَّة الغوغائيَّة، فيصبح عندئذ سفاهةً وفحشًا، ومطاولةً ومكابرةً، ينضح إناؤه بالكره والضَّغينة، ويطفح بسوء الظَّن منذ البداية.

وعلى أنَّه بقدر ما تنفر طباعنا ونفوسنا من النَّقد، فإنَّنا مع ذلك توَّاقون بطبيعتنا إلى أن نكون نُقَّادًا محترفين، تهمُّنا المثالب قبل المناقب، وتستهوينا الأخطاء - بل نطرب لها ونغني - قبل الصواب، وتعنينا الزَّلات أكثر ممَّا يعنينا تلافيها، ومحاولة العدول بصاحبها إلى المهيع السَّوي!

وقد تجد وأنت في (مجلَّس عام، أو خاص، أو حتَّى في لقاءٍ عابرٍ) من يميل إلى الثَّرثرة كثيرًا، وكأنَّما هو حفي بالحديث عن مهمَّة بعينها، أو كأنَّما يبحث عن موقع لنفسه بين النَّاس يسخط من كل شيء، ويعد ما يحدث من مجمل الأمور خطأ لكنَّه لا يقدم رأيًا نيِّرًا، ولا حلًّا ممكنا؛ إذ إنَّه ليس مؤهَّلًا لذلك وقادرًا عليه، ولم يُعطِ من نفسه السِّيرة الذَّاتيَّة المثلى، أو القدوة الكريمة الَّتي تقنع غيره بصدق سريرته.

إنَّ مثل هذا أولى من سواه بالعتب والنَّقد، إن لم يكن بالهزء والازدراء، والأولى به أيضًا أن يلجمَ فاه، ويريحه من عبث هواه، وأن يجنب نفسه آثام حصاد لسانه!

وما أشبه هذا وأنداده بالعجزة المسنِّين الَّذين يجلسون في (مشراق) الشَّمس صباح كل يومٍ من أيَّام الشتاء القارسة؛ ليحظوا بالدِّفء، ويمدُّوا أرجلهم إلى أمامهم

في تراخٍ وتثاؤب، يتحدَّثون في شتَّى شؤون الحياة والكون، وينتقدون كلَّ شيءٍ في عالمهم، وأمَّا إصلاح الشيء ذاته فهو ممَّا لا يعنيهم، أو ممَّا لا تدركه أفهامهم.

ومن عجب الدُّنيا أن تفاجأ بشخص ينتقد أمرًا قد أسهم هو في صنعه، ومع ذلك فلدى هذا الشخص القدرة على الإسهام في تقويم اعوجاج ذلك الأمر، وإعادة ترتيبه، وهذا - لعمري - منتهى الترف النَّقدي، بل هو القبيح بعينه!

وبعد، فقد يخشى بعض محترفي النَّقد الإصلاح؛ لأنَّه قد يجعل منهم (عاطلين) عن العمل![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨٠٥٩)- بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٤١٥هـ.

غادة اليابان

تتمثَّل عصاميَّة الأمم الحديثة - أكثر ما تتمثَّل - في الشَّعب الياباني؛ فهو شعبٌ يكاد يكون مجده وحضارته منحصرين في منجزاته المذهلة المتلاحقة، والَّتي حدثت في أواخر القرن الميلادي السَّابق، وخلال هذا القرن أيضًا، وقد استطاع اليابانيون بجدهم ودأبهم أن يعطوا أصدق نماذج الطموح البشري محقِّقة أروع ما انتهى إليه عقل الإنسان في مجالات (العلم، والاختراع) الَّتي تخدمه ولا تدمره.

لقد جاء اتصال اليابان بالثورة (العلميَّة، والصناعيَّة الأوربيَّة) متأخرًا نسبيًا، ومن العجيب أنَّ أقطارًا عربيَّة قد سبقت اليابان - تاريخيًّا - في هذا المضمار، ومن هذه الأقطار: مصر؛ عندما احتلَّها (نابليون)، وحاول ترسيخ بعض المفاهيم العلميَّة الحديثة بها، وأيضًا ما صنعه حاكمها - فيما بعد - مُحَمَّد علي باشا الَّذي أشرع الباب واسعًا؛ لإرسال البعوث إلى أوروبا، وإقامة بعض المعاهد والمدارس المتخصِّصة في: (العلوم، والهندسة، والطب، والفنون العسكريَّة الحديثة)، ولكن مصر، ورصيفاتها العربيَّة ظلَّت تراوح مكانها، ولم تصل - بأي حال من الأحوال - إلى ما وصلت إليه اليابان، الَّتي أتى اتصالها بأوروبا عقب اتِّصال مصر بأكثر من خمسين عامًا.

ولقد هضمت اليابان الفكر العلمي الجديد في فترةٍ قياسيةٍ، وتفوَّقت في كثيرٍ من جوانبه، بل ومنحته مزيدًا من الإضافات، فأصبحت - كما نراها اليوم - دولةً صناعيَّةً عظمى تنافس سواها عن جدارةٍ!

إنَّ هذه الخواطر قد لاحت لي ووليُّ عهد اليابان يحلُّ ضيفًا على بلادنا قبل أيَّام قليلةٍ، وتذكَّرتُ قصيدة لشاعر النِّيل/ حافظ إبراهيم، وقد كنَّا نحفظها في مرحلة الدِّراسة، وهي بعنوان (غادة اليابان)، وقد قالها في عام (١٩٠٥م)، وفي ذلك التَّاريخ لم تكن اليابان على ما هي عليه اليوم من الوزن الصناعي والاقتصادي، بيد أنَّها كانت في مستهلّ نهضة سيحسب لها العالم ألف حساب، ولم تكن مكفوفة اليدين عن السلاح، بل كانت تجدُّ في بناء جيشها، ولها نفوذ متميز في كثيرٍ من دول شرق آسيا.

واحتلَّت روسيا يومذاك منشوريا، فأهاج هذا اليابان الَّتي خشيت أن يكون الأمر خطوة إلى سواها، وتحدَّتِ الواقع بمفاجأة الأسطول الروسي، وتحطيم معظمه، ونشبت بين الجانبين حرب ضروس، وانتهت باعتراف روسيا بنفوذ اليابان على كوريا، وخروج الرُّوس من منشوريا بشروط مشرفة لليابانيين.

وفي غضون تلك الحرب، نظَّم حافظ قصيدته، الَّتي أشاد فيها ببسالة الياباني، وقد ضمن القصيدة هيامه بغادة يابانيَّة - من باب الخيال طبعًا - ليخلص إلى الإفصاح عن مشاعر الفتاة الوطنيَّة، وإبراز جانب من عظمة الشَّعب الياباني، وصلابة عزيمته، وولائه العميق للميكادو (إمبراطور اليابان).

وممَّا جاء في قصيدته - على لسان فتاته - قوله:

ودعاني موطني أن أغتذي ... علَّني أقضي له ما وجبا
نذبح (الدبَّ) ونفري بطنه ... أيظنُّ (الدُّبَّ) ألَّا يُغلبا؟!

(والدُّبَّ هو الرمز السِّياسي لروسيا، مثلما أن التنين رمز اليابان).

وبعد أن يداعب الشَّاعر فتاته بأنَّ الحرب ليست مسرحًا للغانيات، ولا نفوسًا تُشترى، أو عقولًا تُستبى، وأنَّ الجمال ليس من عدة المعركة، تقطب الفتاة حاجبيها في وجه عاشقها؛ فتتراءى المهاة أمامه، وقد غدت ليثًا:

إنَّ قومي استعذبوا وِرْدَ الرَّدى ... كيف تدعوني ألَّا أشربا؟!
أنا يابانيَّةٌ لا أنثني ... عن مرادي، أو أذوق العطبا
أنا إن لم أحسن الرَّميَ، ولم ... تستطع كفَّايَ تقليب الظُّبا
أخدم الجرحى، وأقضي حقَّهم ... وأواسي في الوغى من نُكبا
هكذا (الميكادو) قد علَّمنا ... أن نرى الأوطان أمًّا وأبا
ملك يكفيك منه أنَّه ... أنهض الشَّرق فهزَّ المغربا
وإذا مارسته ألفيته ... حُوَّلًا في كل أمر قُلَّبا
كان والتَّاج صغيرين معًا ... وجلال الملك في مهد الصبا
فغدا هذا سماءً للعلا ... وغدا ذلك فيها كوكبا
بعث الأُمَّة من مرقدها ... ودعاها للعلا أن تدأبا
فسمت للمجد تبغي شأوه ... وقضت من كل شيءٍ مأربا

على أنَّ القصيدة - أيّ قصيدة - لا تنجلي غايتها، ولا تحلو أو يكتمل رونقها، إلَّا بإيرادها كاملة، ولكن قصيدة حافظ هذه معروفة في دنيا المثقَّفين والأدباء، وهي تضم أشتاتًا من عيون الحكمة، وقد قالها الشَّاعر؛ ليُعطي المثل حيًّا لأمته الَّتي أكلها الوهنُ والكسل، وشغلت بالهزل عن الجد، فكأنَّ القصيدة ضرب من المقارنة عندما قال عن أمته:

أمَّة قد فتَّ في ساعدها ... بغضها الأهل، وحب الغُرَبا

تعشـــق الألقـــاب في غيـــر العلا ... وتُفـــدِّي بالنُّفـــوس الرُّتبـــا
وهي، والأحـــــداث تســـــتهدفُها ... تعشـــق اللَّهـــوَ، وتهـــوى الطَّربـــا
لا تبالـــي لعـــب القـــوم بهـــا ... أم بهـــا صَـــرْف اللَّيالـــي لعبـــا!

أليست هذه حال العرب اليوم أيضًا؟![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٨٠٨٠)- بتاريخ ٩/ ٦/ ١٤١٥هـ.

بين شعرين..

طغا الشِّعر العاميُّ الرَّديءُ على (بعض) صحفنا طغيانًا يلفت النَّظر، وأصبح يزعج كثيرًا من القرَّاء، ويقضُّ مضاجع المثقَّفين والغيُّورين على أصالة الثَّقافة العربيَّة.

ولو كنت مسؤولًا في المجال الصَّحفي؛ فإنَّ أوَّل ما سأفكِّر في استبعاده عن صفحات الصَّحيفة - أو الصُّحف - هو هذا الغثاء، أو النَّتاج الهزيل، الَّذي بات يملأ حيِّزًا غير يسير من صفحاتها؛ ممَّا يسمونه - خطأ بل جورًا - بـ(الشِّعر الشَّعبي)، وكأنما هو رأي الشَّعب، أو لبُّ فكره، وأنموذج توجهه وتصرفه؛ فمعظم الَّذي تنشره صحافتنا اليوم من صنوف هذا الغثاء لا يعبِّر قطعًا عن فكرٍ نيِّر، ولا هو ممَّا يراود هواجس النَّاس وأحاسيسهم!

وسأفعل ذلك حتَّى لو فقدت الصَّحيفة بعض قرَّائها؛ لأنَّ من واجب الصَّحيفة الصَّادقة مع نفسها الارتقاء بذوق القارئ، وليس الهبوط إلى ذوق فئةٍ من قارئيها أو متشاعريها!

وإذا كان الشِّعرُ العاميُّ موجودًا في هذه البلاد منذ ما يقارب سبعة قرون؛ فذلك لأنَّ تلك الفترة كانت فترةَ ركودٍ في ميادين: (اللُّغة، والأدب، والثَّقافة)، بل فترة جهالة وعاميَّة، وإذا كان لهذا الشِّعر وزنه ومكانته الاجتماعيَّة عند النَّاس؛ فما ذاك إلَّا لأنَّه كان - في تلك الحُقب - شعرًا رجوليًّا، وبطوليًّا، وكان مضمارًا للمساجلات

الأخلاقيَّة، ولقصص الشَّهامة، والنُّبل، والبطولة، والفروسيَّة، ثمَّ إنَّه كان وريثًا للشِّعر الفصيح الَّذي أطفأت العاميَّة والجهالة وهجه.

والحقُّ أنَّ الشِّعرَ العاميَّ في تلك الأعصر كان اللسان الذرب لوجدان النَّاس؛ لما يتمتَّع به من سمو في المعاني، وبعدٍ عن الضحالة في الأفكار، ولما فيه من إمتاعٍ وفائدةٍ، وجدَّة إبداعٍ وتصويرٍ، وقد أدَّى دوره في حينه.

ولما صحت الأُمَّة - من جديد - على نداء العلم، وبدأت اللُّغة الفصحى تستردُّ مكانها الطبعي، وانتشرت فنون الثَّقافة، وأسباب الوعي بين النَّاس، وأخذ يعود إلى الشِّعر العربيّ الفصيح سلطانه شيئًا فشيئًا في العصر الحديث، عندئذ أخذ شأن الشِّعر العامي في التَّلاشي - كونها نتيجة طبيعيَّة حتميَّة - حتَّى آلت به الحال إلى هذه الصُّورة الرَّديئة الَّتي تزخر بها صحفنا اليوم، والَّتي تكاد تقتصر على التَّشبيب السَّاذج الرَّخيص، والإطراء الَّذي يراد به الاستجداء في معظم الظروف!

والخلاصة: أنَّه كان هناك شعرٌ نبطيٌّ عاميٌّ جيِّدٌ يتمثَّل في شعر كلٍّ من: الخلاوي، وبركات الشَّريف، والهزاني، وابن ربيعة، وابن لعبون، وابن سبيّل، وابن دحيِّم... إلخ، وأضرابهم من فحول هذا الشعر.

بيد أنَّ هذا الشِّعر قد اختفى، وحلَّ محلَّه - في الغالب - شعرٌ رديءٌ وَجَدَ في بعض صحفنا ميدانًا خاليًا، ومثل هذا الشِّعر هو ما يجب أن يقف في وجهه الأدباء، والمثقَّفون في بلادنا![1]

---

(١) جريدة الجزيرة - العدد (٨٠٣١)- بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٤١٥هـ.

أحزان الأشقاء

تحتضن بعض الأقطار العربيَّة قوميَّاتٍ مسلمة غير عربيَّة، ومن أبرز هذه القوميَّات: (الأكراد) في المشرق، (والبربر) في المغرب.

وإذا وصفنا هذين العنصرين بأنَّهما غير عربيين، فما ذاك إلَّا تماشيًا مع خطأ شائع؛ إذ إنَّ هناك من الباحثين من يرجعهما إلى هجراتٍ متقدمةٍ جاءت من جزيرة العرب، أو أنَّهما - على الأقل - قد استعربا بفضل: (الإسلام، واللُّغة العربيَّة)، واندمجا في العنصر العربي، كما حدث لأقليَّاتٍ صغيرةٍ أخرى.

ومهما يكن الأمر، فقد عاش الجميع مع أشقائهم العرب تحت مظلَّةٍ وطنيَّةٍ واحدةٍ، وجمعتهم مشاعر مشتركة، وانتظموا - عبر التَّاريخ - في رابطة الإسلام العظمى، ولم يكن هناك ما يكدر الصَّفو بينهم، أو يوحي بهويَّةٍ خاصَّة.

ولقد جاء العرب فاتحين، وهداة، ومبشرين، وتلقَّاهم إخوانهم بترحابٍ وقبولٍ؛ فقد كانوا يعيشون شدَّةً من الفراغ الروحي، ويقاسون صنوفًا من الاضطهاد، فبهذا اتَّحد مسار التَّاريخ بالجميع نحو هدفٍ واحدٍ، ومصلحةٍ جامعةٍ.

وعلى سبيل الذِّكر؛ فقد برز من بين الأكراد - في الشطر الشَّرقي من الوطن العربي - قادة أفذاذ ملؤوا سمع الدُّنيا، وذلك عندما جابهوا الحملات الصليبيَّة بإيمانٍ وتصميمٍ، وعطَّروا تاريخنا فخرًا ومجدًا ولعلَّ من أبرزهم: نور الدين محمود، وصلاح الدين.

كما برز من بين الأكراد أيضًا كثيرٌ من الفقهاء والعلماء الَّذين خدموا علوم الشَّريعة، واللُّغة العربيَّة، وكثيرٌ من الشُّعراء والأدباء الَّذين أثروا أدبنا خاصَّةً، والثَّقافة العربيَّة عامَّةً، وإنَّ ما بين أيدينا اليوم من مُدَوَّنات التُّراث لتشهد على بعض ذلك.

وأمَّا في العصر الحديث فقد برز منهم العديد من السَّاسة والمُفَكِّرين، في: (العراق، وسوريا وغيرهما)، ممَّن خدموا القضايا العربيَّة والإسلاميَّة، وخدموا الفكر العربي نفسه.

وفي الشَّطر الغربي من الوطن العربي نهض البربر بالدور نفسه، فكانوا - منذ أيَّام الفتح الأولى - سندًا للعرب في نشر الإسلام، وفي الأندلس، وغرب أفريقيا ووسطها.

وعلى سبيل الذكر أيضًا، ينتشي التَّاريخ جذلًا وهو يردد اسم ذلك البطل العظيم طارق بن زياد، ويحرق سفنه، ويقتحم بعزيمته الفولاذيَّة معاقل المجهول، وقد قامت للبربر - بعد ذلك - دول عربيَّة اللسان إسلاميَّة التَّوجُّه، صمدت في وجه التَّحدي الصَّليبي للوجود الإسلامي في الأندلس؛ تنافح عن الحياض، وتذب عن الأعراض، إلى أن قضت حكمة الله بمحنة المسلمين هنالك، وانحسار ظلِّهم عن تلك الأصقاع.

وقد غزت فرنسا الجزائر، ومن ثم تونس، والمغرب الأقصى، ولم تفرق بين عربٍ وبربرٍ، فكلُّهم مسلمون معادون لها، وكانت جيوش المقاومة الوطنيَّة له مزيجًا متجانسًا من العنصريين، تجمعهما عقيدة واحدة، وأمة واحدة، ولمَّا استقرَّ الأمر بفرنسا هنالك حاولت مرارًا إثارة النَّعرة القوميَّة لدى البربر، ولكنَّ محاولاتها كانت

تـؤوب بالخيبة والخسـران، فهؤلاء كانوا يشـعرون فـي أعماقهم بمشـاعر لا تخطر على بال دهاقنـة الاحتلال.

وعندمـا قامت ملحمة الجزائر الكبرى عـام (١٩٥٤م) على أكتاف عنصريها، أعطى رجالاتهـا أصـدق الأمثـال وأروع المُثـل فـي التَّلاحـم الوطنـي، الَّـذي أدى إلـى النصر والاسـتقلال بعد سـبع سـنواتٍ من الجهاد قدم خلالها الجزائريون مليون شـهيدٍ، وهذا هـو الشَّـأن التَّاريخي بين العرب وأشـقائهم من كردٍ وبربرٍ، بل بينهم وأشـقائهم الآخرين مـن ذوي القوميَّـات الصَّغيـرة المسـلمة، مثـل: (التركمان) فـي العـراق، و(الزُّنوج) في غرب إفريقية.

فمـا الَّذي حـدث مؤخـرًا؟ وكيف اختلَّـتِ الموازيـن، لتظـلَّ علينا - في السـنوات الأخيـرة - بعـض الأفـكار الغريبة علـى تاريخنا؟!

فـي بدايـة الخمسـينيات من هذا القـرن الميلادي، لقد تنامـت فكرة القوميَّـة العربيَّة فـي بداية الخمسـينات من هـذا القرن الميـلادي تناميًا أفقدهـا روحها؛ فكان هـذا إيذانًا يتنامـى فكـرة القوميَّات الأخـرى الكامنة بيننا أيضًـا، كونه رد فعـلٍ تلقائي وطبيعي،

وفـي العـراق، حيـث الأكـراد، ارتـدى الوضع - عبـر انقلاباتـه العسـكريَّة - لباس القوميَّـة العربيَّـة، إلـى جانـب مفاهيم أخـرى غامضـة، متجاهـلًا المـوروث الحضاري للوطنيَّـة والقوميَّـة، الَّـذي يربـط فئـات النَّـاس هنـاك مـن قبـل، ولم يـراع مشـاعر أبناء القوميَّات الشَّـقيقة الأخرى، فكان الحصاد أنَّ هـؤلاء صاروا يبحثون عن توجهٍ مناهضٍ، ويتطلَّعـون إلـى آفاق أخـرى، ومن البدهـي أن يتلقَّفهم الأعـداء، الجاهـزون دائمًا لمثل

هـذا، ويضعونهـم فـي مفرخـة المنهـج القومي الخـاص، الَّذي أخـذ ينمو ويسـتفحل - فـي غفلـةٍ مـن العقـل - إلـى أن أدَّى هذا فـي النهاية إلـى حمل السـلاح، مطالبًـا بجعل لغتـه لغـةً رسـميَّةً تحلُّ محـل العربيَّة غـدًا، ومطالبًـا أيضًا بالحكـم الذَّاتـي الموصل في المسـتقبل إلى الاسـتقلال التَّام.

وعلـى الوتيـرة نفسـها والخطـى حدث الشَّـيء نفسـه فـي الجزائـر، فإنَّ سياسـة ما بعـد الاسـتقلال - ونقـول هذا بمـرارةٍ - وما نتـج عنها من أخطـاء خلقت مناخًـا ملائمًا لنمـو الـرُّوح البربريَّة، وأوجـدت مجالًا مناسـبًا للأفكار، والقـوى الخارجيَّـة؛ كيما تثير النَّعـرة لـدى البربـر، وبـدلًا مـن أن يجـرؤوا على القـول بانفصـال الشـقيقين، اصطنعوا أيضًـا دعـوى الثَّقافة البربريَّـة، ومن ثمَّ تدريـس لغة هذه الثَّقافـة، وطالبوا بإعطـاء الهويَّة البربريَّـة مكانًـا واعتبـارًا، ومـا إلـى هـذا وذاك من أمـورٍ تؤدي فـي خاتمة المطـاف إلى مـا هو أبعـد (لا قـدر الله)!

وإنَّ مـا يُقـال عـن الأكـراد والبربر، يقـال أيضًا عن الزُّنـوج في موريتانيا، وهو شـأنٌ ردَّدته وسـائل الإعـلام الأجنبيَّـة، كأنَّه تلويحٌ بأمـرٍ قادمٍ.

وفي مقابل ذلك كله، نجد أنَّ هناك أقليات عربيَّة تعيش منذ مئات السـنين في بعض دول إفريقيَّة، مثل: السـنغال، ومالي، والنيجر - وهي دولٌ يمثل المسـلمون فيها الأكثريَّة السَّـاحقة مـن السـكان - وقـد أصبحت هـذه الدُّول تشـعر نحو هـذه الأقليَّات بمشـاعر غريبـة، وبحساسـيَّات جديـدة يخشـى معهـا العقـلاء أن يكـون وراء الأكمة مـا وراءها، وقد امتدَّت هذه المشـاعر والحساسـيَّات إلـى الطَّوارق - البربر - الَّذيـن يقطنون هناك،

مثل: إخوانهم العرب، وأغلب الظَّن أنَّ (النَّاموس) الخبيث الَّذي يحرك القوميَّات في الوطن العربي هو نفسه الَّذي يحرك تلك الدُّول نحو مواطنيها من الأقليَّات العربيَّة، فتدفع بهم دفعًا إلى الهجرة صوب الشَّمال الإفريقي.

هذا، وإذا كنا نعيش عهد التَّفرُّق العربي - كما يعبر المتشائمون - ونعيش تنافرًا أليمًا بين دولةٍ عربيَّةٍ وأخرى، وأنَّه لم يعُد هناك دولة عربيَّة إلَّا ولها معضلة فعليَّة، أو مختلفة مع جاراتها العربيَّة، أو حتَّى مع (شقيقتها) البعيدة عنها جغرافيًّا، وإذا كان بعض محدثي (النِّعمة، والسُّلطة، والزعامَّة) في عالمنا العربي قد حقَّقوا القدر الأكبر من كل ذلك، فإنَّه لا ينبغي أبدًا أن تكون الوحدة الوطنيَّة للقطر الواحد مجالَ جدلٍ، ولا مجالَ صراعٍ، والأولى بها أن تظلَّ مصانة من أي عبثٍ، وأن يبقى أهل الوطن الواحد مثالًا في الألفة والالتحام، بعيدين عن إثارة الإحن والنَّعرات، وبعيدين عن هواجس السُّوء، والهوى، والفتن، الَّتي يفتح لها الحاقدون والأعداء صدورهم، ويقفزون من فوقها إلى غاياتهم، بشتَّى الأحابيل والحيل الَّتي تستهوي عادة البسطاء والغوغاء.[1]

❁❁❁

(١) مجلة اليمامة-العدد (١٣٢٧)- بتاريخ ١٤/ ٥/ ١٤١٥هـ.

على هامش الأخبار..

حـان موعد نشـرة الأخبار ذات مسـاء في إحدى المحطَّـات الأجنبيَّة، فأدار الشَّـيخ مفتـاح المذيـاع، وسـمع الموجز، وكان تفصيـلًا لخبرٍ حول أمـرٍ ما، وثمَّ حرَّك المؤشِّـر قليـلًا إلـى محطَّـةٍ أخرى ليجد نفسـه يسـتمع إلى الخبـر ذاته، وهـو يذاع بنغمـة أخرى، وهكذا كان الشَّـأن مع محطَّةٍ ثالثةٍ ورابعةٍ، وفي صباح الغد الباكر سـمع من إذاعة أجنبيَّة (أقـوال الصُّحـف) العربيَّة والأجنبيَّة الَّتـي درجت تلك الإذاعة علـى تقديمها، وكان من بيـن الأخبـار ذلكم الخبـر الَّذي سـمعه البارحـة، وقد لَاكتـهُ بعض تلـك الصُّحف على هـوى مشـاربها، وقـد بـدا ذلـك الخبـر كأنَّه يمثِّـل (قضيَّـة) كبـرى، فأصبح لـه رؤوس، وقـرون، وأذيـال، وأرجل أربع!

وهكـذا الأخبـار الأخـرى، كلٌّ يرويهـا على شـاكلته؛ فيصبغهـا باللـون المطلوب، ويفرغهـا فـي القالـب الملائم له!

وقـد تداعت الأفكار والهواجس من حول الشَّـيخ، أو حول هذه الأخبار، واختلاف الروايـات بشـأنها، وقال لنفسـه: إنَّ هذه الأخبار لها حكـم التَّاريخ، فإنَّ مـا بأيدينا - ممَّا دعتـه مُدَوَّنـات التَّاريـخ - كان يومًا ما أحداثًا يعيشـها النَّـاس، وأخبـارًا يتناقلونها بينهم، وقـد يفسـرونها كمـا يحلـو لهـم، ويكيفونها حسـب مـا يتـراءى لهـم، وربمـا ازداد هذا (التكييـف) مـع الزَّمن؛ فأصبح البون شاسـعًا بيـن الروايات.

وقد تكون أخبار اليوم الَّتي نسمعها - كما يقول الشَّيخ - تاريخًا في الغد، إذا تلقَّفتها كتب التَّدوين، حتَّى الهذيان، قد يدخل مع نافذة التَّاريخ ولو خلسة!

وتذكر الشَّيخ قصيدة للشاعر/ معروف الرصافي وهي بعنوان: (ضلال التَّاريخ)، وقد جاء فيها:

فما كتب التَّاريخ في كل ما روتْ ... لقرَّائها إلَّا حديث ملفَّقُ
نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا ... فكيف بأمر الغابرين نصدقُ؟!
وما صدقتنا في الحقائق أعين ... فكيف إذن فيهنَّ يصدق مُهرقُ؟!

(والمهرق: نوعٌ من الورق القديم الذي كانت تكتب عليه الوثائق).

ويرى الرصافي أنَّ ما ورد في كتب التَّاريخ حديثٌ ملفَّقٌ، أي: كذب، وهو رأي لا يوافقه الشَّيخ عليه؛ ففي التَّاريخ صدق وكذب، والصدق أغلب من الكذب، على أنَّ الرصافي يدلل على قوله هذا بأنَّ الحادثة تقع بين أعيننا، فنجد أنَّ الرِّوايات قد تضاربت حولها، ممَّا يحمل على الشَّك والرَّيب، فكيف يمكن تصديق أخبار الغابرين؟

ويهتف بالشَّيخ هاجسه، ليقول: لقد رُويتْ أخبار كثيرة - عبر التَّاريخ - بطريقة مجانبة للحقيقة، وهاك أمثلة لها:

هذا الخليفة العباسي هارون الرشيد، كان من أعظم الخلفاء المسلمين، وبلغت في عهده الدَّولة الإسلاميَّة أوج مجدها وحضارتها، وكان مجاهدًا غيورًا على ثغور

الإسلام؛ يغزو سنة ويحج أخرى، ومع هذا لم يعدم من يصفه بالخلاعة، والمجون، والمنادمة، و(النواسيَّة)!

وهذا حاكم مصر/ كافور الإخشيدي - في القرن الرَّابع - الذي كان محبًّا للخير، مقيمًا للعدل، عطوفًا على الرعيَّة، مدحه أبو الطيب المتنبي، وأثنى على صفاته هذه وغيرها، ولمَّا زوى كافور وجهه عن الشَّاعر، ولم يتحقَّق للمتنبي، ألصق به أشنع الصفات، وقد كان المتنبي متجنيًّا في ذلك حقًّا، غير أنَّ التَّاريخ تأثر بقول المتنبي، والمتنبي شاعر فحل، له وقعه في قلوب الشُّعراء، ومؤرخي الأدب والسِّياسة، ولهذا ظلَّ لهجائه الجائر مسحته في تشويه صورة كافور.

وهذا السلطان/ عبد الحميد - في عصرنا الحديث - الذي كان سلطانًا قويًّا، رأى كيان دولته يهتز أمام أطماع الدُّول الأوربيَّة، ومكائد الصُّهيونيَّة الَّتي ساومته على توطين اليهود في فلسطين، فرفض ذلك بشدة، وقال مقولته الخالدة: «تُقطع يدي ولا أعطي شبرًا واحدًا من فلسطين لليهود»، فما وسعه أمام تلك الأطماع والمكائد إلَّا انتهاج سياسة الحزم تجاه أولئك، وتجاه بعض فئاتٍ من قومه (كجمعيَّة الاتحاد والترقي) التي هي صنيعةٌ أوروبيَّةٌ، فهاجت السِّياسة الأوربيَّة وماجت، وكشرت الصُّهيونيَّة عن نابها، فحاربوه بالإعلام المضلل في الدَّاخل والخارج، وصوَّروه في نظر التَّاريخ طاغية غشومًا حتَّى أزاحوه بعيدًا عن داره، وبعد نصف قرن من تنحيته جاء التَّاريخ ليصحِّح بعض المفاهيم عنه!

وقد تداعت تلكم الهواجس من حول الشَّيخ وهو أمام المذياع، وقال لنفسه مرَّةً أخرى: إنَّ هذه الأخبار الَّتي تتفوَّه بها هذه الإذاعات وتسطرها تلك الصُّحف هي نمط لما قبلها، وقد تتلقَّفها غدًا بعض كتب التَّاريخ، وربَّما صدق بها القارئ لها على عِلَّاتها، ولكن المؤرخ الثَّبت سيقف أمامها مدقِّقًا ومراجعًا، وسيقول كلمة الحق حولها، وسيُعمل القارئ فكره وعقله أيضًا، ويصدر الزَّمن حكمه، ولكن متى؟!

إنَّ كثيرًا من الأخبار ضرب من الهوى السِّياسي؛ فهي روايات محبوكةٌ بعنايةٍ، ومعدَّةٌ بأسلوبٍ خادعٍ يحملُ على التَّصديق، فلنتعامل معها بفطنة المؤمن(كما يقول الشَّيخ).[1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة-العدد (٨٠٣٨)- بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٤١٥هـ.

أيـن تكمن العلَّة؟!

لـم تغِب الشَّـمس عن ممتلكاتهـا الإمبراطوريَّـة البريطانيَّة فعلًا؛ فقـد كانت بريطانيا (العظمـى) تحكم - إلى ما قبل خمسـين عامًـا - أطرافًا متباعدة، وأجـزاءً نائية من الكرة الأرضيَّة، في شـتَّى القارات السـت، وتكاد تكون لأسـاطيلها الحربيَّـة والتجاريَّة الهيمنة على أهم الممرَّات المائيَّة الاسـتراتيجيَّة في العالم، بل إنَّ لهذه الأسـاطيل الهيبة والرهبة فـي البحـار والمحيطات كافَّة، ولم يكن عدد سـكَّان الجزر البريطانيَّـة - في أوج ازدهار مجـد الإمبراطوريَّة - يزيد عن أربعيـن مليونًا إلا قليلًا.

وكانـت (الهنـد) درَّةُ التَّـاج البريطانـي، ويحكمها نائـب للملك، كمـا كانت مصدر الغذاء، والملبس، والمواد الخام للصناعات البريطانيَّة، ومصدر الرَّخاء للشَّعب البريطاني علـى الجملة، وكان شـباب الهند هم جنودَ الحـروبِ - بل حطبها ووقود - الَّتي تسـتعرُّ لظاهـا بين بريطانيا وغيرها، أو الَّتـي تكون بريطانيا طرفًا فيهـا (كالحربين العالميَّتين).

وإذا أُطلقـت (الهنـد) يومـذاك، فإنَّهـا تعني ما يسـمى اليوم بـ: (الهند، وباكسـتان، وبنجـلادش، وسـريلانكا)، وممَّـا يؤثـر عـن حكـم الشَّـرق - في زمنـه - جمـال الدين الأفغاني مقولته الشَّهيرة التي خاطب بها الهنود الجانحين تحت نير الاستعمار البريطاني، وهـي: «لـو كنتم وأنتم تعـدون بمئات الملاييـن ذبابًا، لـكان طنينكم يصـمُّ آذان بريطانيا العظمـى، ويجعـل فـي كبيرهم المسـتر غلادسـتون وقرًا، ولو مسـخكم الله سـلاحف، وخضتـم البحر، وأحطتم بالجزيـرة البريطانيَّة، لقلبتموها ورجعتم إلـى بلادكم أحرارًا».

وقد هزَّت هذه العبارات البسيطة محافل المحتلِّين؛ فحظروا على الأفغاني الإقامة في مستعمراتهم، إلَّا فترات عابرة، ورصدوا حركاته وسكناته، وراقبوا من يتَّصل به من المُفكِّرين، ورجال الحركات الاستقلاليَّة.

وحرَّكت تلك الكلمات مشاعر الهنود؛ فبدؤوا ينظرون إلى مستقبلهم بأعين أخرى، ونهض من بينهم رجال ملؤوا الدُّنيا وحقَّقوا الاستقلال لبلادهم بالسلم، وقوَّة الإرادة، وسداد الرَّاي، وحصافة الحكمة، وبدون إراقة دم!

واليوم انحسرت الشَّمس عن تلك الإمبراطوريَّة، بل أصبحت الشمس كاسفة في سماء بريطانيا ذاتها، ولا ندري ماذا يضمر الغيب؟!

هكذا شأن الدُّنيا! ولقد انتهت إمبراطوريات كثيرة، مثل: الإمبراطوريَّة الإغريقيَّة، والرومانيَّة، والفارسيَّة، والعثمانيَّة، والروسيَّة (القيصريَّة والشُّيوعيَّة)، وغدًا أو بعد غدٍ سوف تختفي إمبراطوريات أخرى!

ولكن، ماذا يقول لسان الحال اليوم للعرب في (آسيا، وإفريقية) المحدقين بإسرائيل الَّتي تحتل جزءًا من ديارهم؟! ماذا يقول لسان الحال لأمةٍ وفيرة العدد ضخمة الإمكانيات، وقد تمكَّنت حفنة قليلة وافدة من إقامة كيان لها في وسط هذا الخضم؟!

لن نوغل في الخرافة؛ فنفترض مسخ العرب إلى جنس آخر يلتهم عدوه، ولكنَّنا نقول: إنه لو صدقت النيَّة، وتمكَّنت روح (الإيمان، والعزم، والفداء) من

النُّفوس حقًّا، لما احتاج العرب إلى سكاكين مطابخهم؛ ليفروا بها بطون المحتلين، ويقطعوهم أوصالًا!

إنَّ العلَّة تكمن في تنحية الرَّأي الصَّائب، والسِّياسة الحكيمة، والشِّقاق - الَّذي كاد أن يكون طبعًا، وشتَّت القلوب، ونفَّر المشاعر عن بعضها - وبروز أفكار نشاز، وحركات مريبة؛ تزامنت بداياتها مع بداية إسرائيل، وظلَّت تتاجر - غباءً أو استغباءً - بالوطنيَّة والقوميَّة على حساب قضايا مصيريَّة؛ فقضمت الزَّرع، ومصَّت الضرع، ووأدت المعنويَّات، وشلَّت القدرة العربيَّة، وجعلتها واهنة متخاذلة ترضى بالاستسلام، والاستجابة التِّلقائيَّة لمفاجآت الزَّمن![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٣٠٤٥) - بتاريخ ٣/ ٥/ ١٤١٥هـ.

سيادة اللُّغة من سيادة أهلها

تستمد اللُّغة هيبتها وسيادتها من هيبة الأُمَّة وسيادتها؛ فمتى كانت الأُمَّة وارفة السيادة، مرهوبة الجناب، كبيرة في أنظار العالم، كان للغتها اعتبارها، ومكانتها بين اللُّغات العالميَّة الأخرى، ومتى كانت الأُمَّة ضعيفة، هيِّنة على غيرها، تظلُّ لغتها رهينة التَّجاهل والاحتقار، وليس من أعدائها فحسب، وإنَّما من أبنائها أنفسهم أيضًا!

ويوم أن كان العرب في أوج تفوقهم، وازدهارهم وفي قمة مجدهم وسؤددهم، كانت لغتهم العربيَّة سيِّدة لغات الدُّنيا، والوعاءّ الحيَّ الجدير باحتواء حضارات العالم، بما فيها من علومٍ، وآدابٍ، وفلسفاتٍ، وكان أرباب هذه الحضارات وورثتها يرمقون هذه اللُّغة بعين الإكبار؛ لأنَّها اللُّغة القادرة على استيعاب أفكارهم وحفظها.

وبعد أن تدهورت حال العرب شيئًا فشيئًا، عبر عهود الانحسار العلمي والحضاري، سارت لغتهم في المسار نفسه لهذا الانحدار، وقد آل الحال - في أواخر العهد التركي - إلى أن تدرس اللُّغة العربيَّة في المدارس باللغة التُّركيَّة لأبناء العرب!

وثمَّة مثل آخر لعلاقة قوَّة اللُّغة بأهلها - وهو مثل سقته قبل خمسة وعشرين عامًا في مقالٍ لي بـ(جريدة الدَّعوة) حول الموضوع نفسه، وأعني به: اللُّغة العبريَّة - فهذه اللُّغة ظلَّت تعيش على هامش الحياة اليهوديَّة أكثر من ألفي عام، وليس لها وجود إلَّا داخل المعابد، فكانت في حكم الميتة.

ولمَّا تداعى اليهود إلى فلسطين حديثًا، وقامت لهم دولة في بلادنا، بتأييدٍ ودعمٍ

من قوى البغي والشَّر شرقًا وغربًا، عادت الحياة تدبُّ إلى هذه اللُّغة، فأصبحت لغة: المنزل، والمتجر، والمسرح، والتَّدريس، بل أصبح يُدرس بها أدق العلوم الحديثة في فلسطين، وذلك بعد أن فكَّت سطوة اليهود عقال هذه اللُّغة قسرًا، وفرضتها لغة حيَّة، ولم يقل (أكاديميٌ يهوديٌ) تعلَّم في جامعات أوربا، أمريكا: إنَّ لغته هذه عاجزة عن مجاراة ثورة العلم الحديث.

وعلى النَّقيض من هذا، يتردَّد كثير من المسؤولين عن التَّعليم في العالم العربي في الإقدام خطوة واحدة نحو تدريس العلوم بها في الجامعات! بل إنَّ كثيرًا من (الأكاديميين العرب) عندما يتحدَّثون عن هذا الموضوع يتحدَّثون على (استحياءٍ)؛ مخافة أن يوصموا بالتَّخلُّف العلمي!

وهذا في الوقت الَّذي يُدرك فيه هؤلاء أن كلَّ بلدٍ في أوربا يُدرس العلوم كافَّة بلغته الخاصَّة، وكذلك الحال في: اليابان، والصين، وتركيا؛ ذلك أنَّ نظرة الأمم إلى لغاتها لا تقل عن نظرتها إلى مقوماتها الأخرى.

وأذكر أنِّي قرأت قولًا للرَّئيس الفرنسي الأسبق/ شارل ديجول - ولعلَّ ذلك في إحدى مذكَّراته -، إذ إنَّه عندما استولى الألمان أثناء الحرب العالميَّة الثَّانيَّة على باريس، وسقطت فرنسا في قبضتهم، ونهضت المقاومة الفرنسيَّة لمواجهة المحتلِّين بدعم من الحلفاء، وجَّه رئيس الوزراء البريطاني/ تشرشل خطابًا إلى الشَّعب الفرنسي يحثُّه فيه على الصُّمود، وكان الخطاب باللُّغة الفرنسيَّة الَّتي تشترك بحروفها مع اللُّغة الإنجليزيَّة، ولم يكن تشرشل يعرف الفرنسيَّة كما يجب، شأنه شأن الفارسي الَّذي يقرأ العربيَّة دون أن يفقهها، فكان إلقاؤه للخطاب مثارًا للازدراء، ومدعاةً للاشمئزاز

والتَّأفُّف من لدن الفرنسيين، ومن بينهم: الجنرال/ ديجول، الَّذي قال وهو يستمع إلى تشرشل: «لقد هان عليَّ سقوط فرنسا أمام سقوط اللُّغة الفرنسيَّة»!

وبعد؛ فلقد جالت بذهني هذه الأحاسيس وأنا أتابع ما نشر مؤخَّرًا في بعض صحفنا بأقلام نخبةٍ فاضلةٍ من الغيُّورين على لغتهم؛ لغة القرآن الكريم، والتُّراث، والحضارة، وكلُّها كلمات تنبض إخلاصًا، وتتَّقد حماسة، وليس هذا بغريب منهم، بيد أنِّي أحسب أن احترام اللُّغة ينبثق أوَّلًا من وعي النَّاطقين بها، وسنُّ الأنظمة الرَّادعة للمستهينين بها - كما يقترحه بعضهم - مفيدٌ في الاستخدام اللُّغوي العام، ولكن ماذا عن المجالات العلميَّة؟!

إنَّ انبثاق الوعي صورة من صور القوَّة، ومتى ما اكتملت قوَّة الأُمَّة، وأصبح لها مقام مرهوب، ستكون لغتها قويَّة مسيطرة، ومتألقة في شتَّى آفاق المعرفة، وخاصَّة أنَّها لغةٌ هاضمةٌ، ومتطورةٌ، وقادرة على مجاراة الحياة؛ بما توفر لها من ثراءٍ، بل من ترفٍ معجمي أيضًا، وبما أتيح لها من أسباب المرونة، مثل: الاشتقاق، والنحت، والتوليد، والتَّعريب اللفظي وغيرها.

على أنَّ هذا لا يعني التَّراخي تجاه لغتنا، ولا يعفينا من واجب المنافحة عنها، وإحلالها محلَّ غيرها من مجال الدرس والبحث، وجعلها عزيزة في عقر دارها على الأقل![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٨٠١٠) - بتاريخ ٢٧/ ٣/ ١٤١٥هـ.

عن الواقع العربي أيضًا

كان الفتى العربي في فترة الخمسينات من هذا القرن يحلم بالوحدة العربيَّة - الَّتي هي شعار جيله - وهي تلفُّ بعباءتها الفضفاضة شتَّى ربوع الوطن العربي؛ من محيطه (الهادئ) إلى خليجه (الثَّائر) - حسب تعبير ذاك الزَّمان - ويتصوّر آماله وتطلُّعاته وقد أضحت حقيقة، ويبصر - بمنظور حقه وعدالة قضيته - فلول اليهود وقد ولَّت على أعقابها مثخنة الجراح، منهكة القوى، صوب البحر عائدةً إلى ديارها الَّتي وفدت منها منذ سنوات، بعد أن أطبق عليها (المارد) الخارج من قمقمه، (وهذه من تعبيرات ذاك الزَّمان أيضًا)!

لقد سرح (الخيال) الجميل بهذا الفتى، وأنا أستعمل كلمة (الخيال) تمشيًا مع السِّياق؛ فالأمر في الواقع ما كان خيالًا محضًا، بل كان شعارًا ومطمحًا، ذلك أنَّنا - نحن العرب - أصحاب حقٍّ، وقد تآمر علينا الشَّرق والغرب معًا، وأقاما بين ظهرانينا (وطنًا) لإسرائيل، ظلمًا، وقسرًا، وعدوانا.

ولهذا، جاء الرَّدُّ العربيُّ سريعًا، ومنفعلًا، ومتلاحقًا، ولكنَّه ردٌّ غير منسَّقٍ ولا محكمٍ، بل إنَّ بعض فصوله - ونقولها بصراحةٍ وألمٍ - كانت تعدُّ من قبل أعدائنا أنفسهم!

ولقد تأججَّت روح الثَّأر والانتقام في مشاعر هذا الفتى - وهذا من حقِّه - وفي غمرة من حيرته، وشدَّة محنته، وانصراف العالم عن سماع صوته، اعتملت في داخله

شتَّى الهواجس الَّتي لم يكن مهيئا ولا قادرًا على دعمها بشيء من البصيرة الفكريَّة، والتَّخطيط السِّياسي، والتَّحسُّب لجشع الأعداء ومكرهم وحيلهم؛ فتلقَّفته صنوف (الشِّعارات) الَّتي لم يكن له عهد بها، ولكنَّها لقيت استجابة عاطفيَّة من لدنه؛ فانساق خلفها في عجلٍ، حتَّى أبعدته عن حقيقة ذاته، ومقوماته الشَّخصيَّة والوطنيَّة، وإرثه الحضاري؛ فأسقط هذا الجانب من حسبانه، وعرَّى قضاياه من روحها، وأدَّى هذا المنعطف إلى حرمان قضايانا من عنصرٍ حيوي لنجاحها، وقد أوجدت تلك الشِّعارات شروخًا في بناء الأُمَّة، وجرى تصنيف العرب إلى فئاتٍ، وانعكست المفاهيم في خضمّ الفتنة!

وفي غضون ذلك، قامت انقلابات وثورات بدعوى إنقاذ كرامة الأُمَّة، ولكنَّ معظمها أخطأ الدَّرب، وراجت مفاهيم آيديولوجيَّة حاولت اختراق الحواجز النَّفسيَّة، والروحيَّة، والتَّاريخيَّة، واقتلاع الجذور، وتحدِّي المشاعر العامَّة والخاصَّة، وكانت القضايا العربيَّة - ومنها قضيَّة فلسطين - هي الخاسرة دائمًا!

ومن ثمَّ جاءت حرب الخليج، أو المأساة الأعجوبة؛ لتمزِّق ما تبقَّى من أسمال عباءة الآمال العربيَّة، فيكون من ثمار هذه الحرب - إن كان لها ثمار! - تقديم (وجبات) السَّلام متتالية إلى أعدائنا على أطباقٍ شهيَّة، فينفردون بكلِّ طرفٍ عربيّ؛ ليملوا عليه ما يشاؤون![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة-العدد (٨٠٠٣)- بتاريخ ٢٠/ ٣/ ١٤١٥هـ.

ومع هذا فلا يأس مع الحياة!

ليس أمضّ على عربي مخلصٍ وصاحب حقّ من أن يرى أمانيه وتطلُّعاته قد تحوَّلت إلى سرابٍ، أو ما يشبه السَّراب!

فبعد أن كان جيلنا الَّذي عاش النَّكسات والنَّكبات وهي تمرُّ به تترى، وتعصف بأشقَّائه دون رحمةٍ، وشاهد صنوف الظُّلم تلحق بأمَّته العربيَّة سواء أكانت من جانب الصُّهيونيَّة، أو من قبل الدُّول الكبرى في الشَّرق والغرب، فأقول: إنَّه بعد أن كان هذا الجيل يتطلَّع في ثقةٍ وإصرارٍ إلى تحرير الأرض العربيَّة المغتصبة كاملة، فإذا به - ويا للحسرة! - يعود بخفي حنين؛ فيرضى من الغنيمة بالإياب والنُّكوص! وإذا به أمام (تهافتاتٍ) مذهلةٍ متلاحقةٍ، لم تخطر على بال جيلنا يومًا! وإذا بالعرب - رغبة أو رهبة - يتبارون في طلب السَّلام مع العدوّ، وإذا بهم أيضًا ينتهون إلى (أريحا، وغزة)! كأنَّما نحن أمام سلسلة مسرحيَّة تاريخيَّة رهيبة!

فلقد عشناها أحداثًا مريرة قاسية، لا بالنِّسبة إلى فلسطين وحدها، وإنَّما بالنِّسبة إلى معظم أقطارنا العربيَّة، وعشناها فصولًا (دراميَّة) مضحكة مبكيَّة في إطار العلاقات العربيَّة نفسها!

ولا شكَّ أنَّها أحداث يندى لها جبين التَّاريخ العربي خجلًا وأسفًا، وتتفطَّر منها قلوب العقلاء هلعًا وندمًا!

على أنَّنا - من بعد - لسنا متشائمين، ولا يائسين، أو قانطين من رحمة ربنا، بل نؤمن بأنَّ: «ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا»، ولدينا من الإيمان والحق ما يمنحنا الثِّقة في قدرتنا الكامنة في ذواتنا؛ بأن يسودنا التَّفاهم في غدنا، وأن نبتعد عن أسباب الإحن، ومظانِّ الشَّحناء، وبأن نرجع إلى وازع العقل، ولدينا الثقة أيضًا بأنَّ جولة الحقِّ ظاهرة على جولة الباطل مهما طال الزَّمن، ومهما كانت ذراع العدو عاتية وطويلة!

وإذا كان هذا الجيل قد عثر به واقعه، وتكالبت عليه الأسباب والأضداد؛ فإنَّ أجيالًا عربيَّة قادمة أخرى ستكون - إن شاء الله - حريَّة بتحقيق النَّصر، وإعادة كرامة الإنسان العربي حقًّا، إلى أن يأذن الله تعالى بفتحٍ جديدٍ من عنده، ستظلُّ الأُمَّة أسيرة خلافاتها، وضعفها، وهوانها على العالم![1]

❁❁❁

(١) جريدة الجزيرة- العدد (٧٩٩٦) - بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٤١٥هـ.

هذا الكتاب

الأستاذ/ عمران بن مُحَمَّد العمران أحد الروَّاد للحركة الثَّقافيَّة السُّعوديَّة منذ أكثر ما يزيد على خمسين عامًا، كان له إسهامه المشهود، ودوره المعروف، وآثاره الواضحة في المشهد الصَّحفي والإعلامي والثَّقافي.

لقد قضى الأستاذ/ عمران الشَّطر الأكبر والأثمن من عمره في خدمة هذا الوطن الغالي وولاة أمره؛ فتحمَّل مسؤوليات، وتقلَّد أعمالاً، فكان فيها نعم المؤتمن المخلص، حتَّى حاز الثقة الكبرى، وكانت آراؤه السديدة في محطَّات عمله شاهدًا على حصافة الرَّأي، ورجاحة العقل

محمد بن عبدالله الشوع

ISBN 9786039142560

دار التكوين